فريق متميزون
E-BOOK

ولا تقربي هذه الشجرة

رواية

ألفت عاطف

الرواق للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ولا تقربي هذه الشجرة

(رواية)

ألفت عاطف

عن الكتاب..

“هذا كتاب خطّه شهيد..

وكتب الشهداء رسائل، تُكتَب بالدم وتُقرَأ بالروح..

لتعود بعد حين وتُكتَب بدماءٍ جديدة.

اقرأيه بروحك يا صغيرة.. وتذكري دومًا أنك لن تجدي الشمس في غرفة مغلقة!”

هكذا قالت الشجرة لليلى يومًا ما، وسط عالم صامت من الصم والبكم، مُنعت فيه لغة الإشارة والكتابة والنسخ، وصارت الكلمة جريمة يعاقب عليها القانون، في حين تُوفّر الدولة بطاقات رسمية مختومة يمكن للناس التواصل من خلالها، ومن خلالها فقط. في هذا العالم وُلدت ليلى، ولم يكن يخطر لها على بال أن تلك الشجرة سوف تُغيّر مجرى حياتها بالكامل، أنها ستفتح أمامها بوابة سحرية على جمال الحياة وقبحها في آن. لقد غرقت تمامًا في سحر الكلمة، بعد أن انقرضت الكلمات وصارت ذكرى من الزمن القديم. ولقد أوصلها هذا السحر في النهاية إلى الوجه العاري للحقيقة، الوجه المستتر خلف حجب الصمت المحكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداءُ..

إلى روح الراحل الغالي علي أحمد عبد الخالق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما قبل الفصل الأول

«لن تستطيعي أن تجدي الشمس في غرفة مغلقة»

هكذا قالت الشجرة! ولسبب ما تذكَّرَت قولها عندما نَظَرَت للنافذة الموصدة. يبدو أن الصباح قد بدأ على غفلة منها، فبقع النور الصغيرة المتسللة من شقوق النافذة والمنطبعة على الأرض، متوهجة وقوية. لماذا لم توقظها أمها إذن؟!

دفعت بيدها الضلفة المغلقة، ووقفت قليلا تستنشق عبير الصباح البكر بشراهة، متأملة جذع الشجرة المقطوع في الأسفل، والذي دهن بلون برتقالي سخيف وزين بالمسامير النحاسية ليصير مقعدا يتوسط حديقة المنزل. لونه الفسفوري الفاقع لا يسمح لعينيها بتجاهله رغم محاولتها. لتصير بقايا صديقتها القديمة تؤذي نظرها ووعيها باستمرار. وتمد يدها لتعبث بذكرياتها وتبعثها من بعد رقاد طويل. لقد كان الشجر هو موطنها الأول. المكان الوحيد الذي شعرت بروح حية تسكنه. إلا أن العام الذي قضته بمعسكر الإصلاح والتهذيب، كان كفيلا بتشويه ثقتها بحكمها على الأشياء وإحساسها بها، فالشجر لا يتحدث ولا يكتب الشعر، الشجر لا يربط في فروعه الهدايا والحلوى للأطفال، حتى تمحو حلاوته ما بهم من مرارة الوحدة. تلك أشياء لا يفعلها الشجر... ولا البشر كذلك.

ازدادت الشمس حدة، لتقتلع وعيها من ذكريات مر عليها أكثر من عشر سنوات حينما كانت في السادسة من عمرها.

لماذا لم توقظها أمها إلى الآن؟ تساءلت في قلق، فتشت عن جهازها اللوحي الغارق في فوضى الغرفة ثم علقته في رقبتها وغادرتها.

مشطت ليلى أرجاء المنزل بحثا عن أمها بخطوات سريعة قلقة، تتقافز فوق الدرج نزولا وصعودا كصغير عصفور على صفيح ساخن، لم تكن طاولة الإفطار معدة كما هي الحال كل صباح، بل كانت مغطاة ببقايا كعكة عيد ميلاد أمها الذي أقامته بالأمس.

«كل عام وأنتِ بخير يا أعظم أم»

«أحبك يا نور حياتي»

«عام جديد سعيد يا أجمل أم في العالم»

كانت تلك هي البطاقات التي رفعتها هي وأختها الكبرى وأبوها احتفالا بميلاد الأم لهذا العام، بوجوه واجمة يبدو عليها الملل أكثر من أي تعبير آخر. وكانت

هي ذاتها التي رفعوها في العام السابق، والعام الأسبق!

لم يكن فراش غرفة أمها منسقا، ولم تشعر ليلى بالحركة العنيفة المعتادة لغسالة الملابس أو غسالة الأطباق، حتى إن الجرائد الملقاة على عتبة المنزل ما زالت في مكانها تماما. إلى جانب تلك الشظايا الزجاجية المدممة المتناثرة في أرجاء المطبخ. بالتأكيد لن تكون الأمور على ما يرام، هكذا شعرت وهذا ما تبدو عليه الأشياء. مكان وحيد متبقٍ في المنزل الفسيح ذي الطابقين لم تبحث فيه عن أمها رغم معرفتها بقضائها الكثير والكثير من الوقت به، ربما لأنها دائما ما تحبس نفسها فيه بالساعات في الأوقات المتأخرة من الليل فقط ولا تطأه في الصباح أبدا.

وقفت أمام باب القبو. مضطربة كانت أو خائفة أو متقززة أو مزيجا من كل تلك الأحاسيس مجتمعة، لم تدرِ تحديدا، فدخول ذلك القبو كان ولا يزال يمثل عبئا ثقيلا عليها تتجنب حملَه بكل وسيلة متاحة. رائحة الفورمالدهايد المختلطة بالأعشاب والزيوت العطرية، والتي تغطي خلفها طيفا باهتا لرائحة نتن عضوي، ربما لا تتبدى بوضوح من أثر كل تلك الروائح الأخرى إلا أنها تشعر بها كشبح خفي يرتجف القلب لحضوره حتى وإن لم ترصده الحواس. أمسكت بالمقبض وأدارته، توقعت كالعادة أن تكون أمها قد أغلقت القفل الداخلي لتمنع أيا منهم من اقتحام خلوتها الغريبة مع رفقاء وحدتها المظلمة، إلا أن الباب فتح ببساطة. هل نسيت أن تغلقه تلك المرة؟ أم أنها ليست موجودة بالداخل من الأساس؟ أين يمكن أن تكون إذن؟ هي لا تخرج من المنزل إلا ما ندر، ماذا يمكن أن يكون قد تغير هذا الصباح بالذات؟

نفضت من فوق عقلها كل تلك الأفكار وتخطت مخاوفها وعتبة باب القبو بخطوة واحدة. وضعت كفها على أنفها محاولة منع مزيج الروائح الكريه من التسلل عبره وهبطت الدرج مسرعة. ثم عادت في التباطؤ من جديد حينما وجدت نفسها محاطة بكل تلك الوجوة المتخشبة والأعين المفتوحة على موت يتنكر في ثوب حياة فاضح، يكشف من موته أكثر مما يستر. كان المكان يعج بحيونات محنطة، عرفت الكثير منهم في أثناء حيواتهم القصيرة، أطعمتهم وحممتهم وشاركتهم ألعابهم وشاركوها فراشها وصورها التذكارية، نظرت في أعينهم اللامعة ورأت فيها وجهها المبتسم في أثناء مداعبتها لهم. أما الآن... فقد رحلوا جميعا وبقيت أجسادهم في تلك المقبرة المفتوحة كمزار، إلا أن أعين الدمى البلاستيكية التي استبدلت بها أعينهم الحقيقية المتحللة لم تعد تعكس صور الوجوة المبتسمة، فقط تعكس ذلك التعبير الرهيب بالحزن والفزع والوحشة.

ازدردت ريقها بصعوبة في أثناء مشيها وسط كل تلك الوجوة الجامدة المحدقة، السابحة في ضوء المصباح الأصفر الخافت الذي يعجز عن إنارة كل

مساحة القبو، فيترك أطرافه محجوبة في ظلام كثيف يؤطر تلك الصورة الصفراء للمقبرة الجماعية الكئيبة بإطار أسود. لم يكن من السهل بتاتا الخروج من بقعة النور واختراق تلك الأركان المظلمة البعيدة، إلا أن المهمة الثقيلة كان لا بد لها أن تكتمل. بدأت في تحسس الطريق عندما توقف شعاع النور عند آخر حد مسموح، تاركا إياها وحيدة تماما، أخذت تلوح بيديها في الظلام لتتبين طريقها على أمل أن تعتاده بعد لحظات فتبصر فيه ما تحتاج لرؤيته، إلا أن وجهها اصطدم بشيء ما، جعلها ترتد إلى الخلف فزعة ككرة مطاطية اصطدمت بجدار، صدمة أسقطتها أرضا. كان شيئا ناعما... باردا... كان...

لم يستطع عقلها مواصلة التفكير، تخشب جسدها على الأرض واتسعت عيناها كمن يرى الموت جهرة، محدقة لهذا الشيء المعلق في جوف الظلام، لم تدرِ كم من الوقت مر قبل أن تتمكن عيناها من التكيف لترى، ويا ليتها ما رأت.

كانت أمها متدلية من الأعلى، عنقها مشدود بحبل غليظ معلق بالسقف، تتحرك ببطء كبندول ساعة تلفظ أنفاسها الأخيرة، إثر اصطدامها بها.

في تلك اللحظة، ربما صرخت ليلى، وربما بكت، ربما لطمت وجهها أو ضربت برأسها أرض القبو وجدرانه، ربما خمشت بأظفارها جلد وجهها حتى سالت منه الدماء. لا يهم... فلا أحد يبصر سوى أعين الموتى حولها.

كانت مستلقية فوق أرض القبو الرطبة حينما أوشكت آخر قطرة وعي أن تتسرب من إناء رأسها المهشم. وأخيرا تجلى أمامها المشهد بوضوح، رأت الرداء الأزرق المترنح أمام الجدار. جدار خُطت فوقه كلمات بخط رديء لا يكاد يُفهم. كيف كُتبت تلك الكلمات؟ هل كتبتها الأم؟ وهل تستطيع الكتابة من الأساس؟ ألا تعرف أنها جريمة يعاقب عليها القانون؟ هل هذا شعر؟ وهل يكتب الشعر سوى الشجرة القديمة؟ هل كتبت الكلمات بالدماء المتقاطرة من قدمها النازفة؟

كلها أسئلة كانت لتسألها لو أنها بكامل وعيها. إلا أن عقلها لم يكن حاضرا ليسأل، وفضولها لم يكن ليستطيع مزاحمة هذا الطوفان الجارف من الحزن والفزع والرهبة والإعياء. فقط حاجباها قطبا في تعجب في اللحظة الأخيرة قبل أن تفقد الوعي تماما.

وبقي الجدار منتصبا شاهدا على تلك الأجساد المتناثرة أمامه ما بين حي وميت وبين بين، منقوشة عليه تلك الأبيات المكتوبة تماما كما كتبت أول مرة قبل أعوام طوال، كأنها كلمات تأبى إلا أن تكتب بالدماء...

«لن تُبعَث الكلماتُ فرادى
بل سيُبعَث كلُ الأمواتِ مجتمعين
ليقتص القتلى من الَقتَلة
وتقتص الكلمة من الصامتين»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لا... بل فقلن الصمت موت
أوليس الموت صمت؟
الحرف مثل النبت.. هل يحيا بغير الأرض نبت؟
ولكل نبت أرضه المعطاء
ليس يعيش في أرض سواها..
الحرف يذبل يا أميراتي الحسان..
ويموت لو ينفى، وينسى لا يمر على لسان.»

نجيب سرور

«في اليوم الأول لوضع ذلك العداد الضخم المنتصب وسط ميدان الحرية، لم يكن هنالك من ميدان، كانت ساحة معركة ضخمة سُفكت فيها من الدماء ما جعل رائحة الموت تفوح من كل ركن فيه كأنه واد من وديان جهنم. ضُبط العداد حينها ليعد تنازليا بدءا من مئة عام، ليمر بعدها الوقت سريعا بطيئا. تساقطت منه الأعوام واحدا بعد الآخر كأوراق الخريف الذابلة، حتى أوشكت على النفاد. واليوم، لم يتبق فوق شاشته سوى ثلاثة أيام، تلفظ أنفاسها الأخيرة قبل أن تسقط مع مثيلاتها في بئر الماضي المظلم تاركة أرض الحاضر إلى الأبد. لينطفئ العداد وتُنَفَذ الوعود، ويظهر العلاج بعد مئة عام من ظهور المرض. فتطوى بذلك صفحة مضيئة لتتبدى من خلفها أخرى أشد نورا وبياضا من سابقتها في قصة العالم الجديد، العالم المثالي الذي نُحت بيد فنان من أطلال قديمة، فخرج من بين يديه خلقا آخر، لم تضاهِه حسنا وكمالا أي من الحضارات السابقة على مر العصور...

هكذا قيل لهم... وهذا ما كانوا يعلمون!

أسوأ الكوابيس على الإطلاق هو ما تقتبس بدايته من حلم رائق، فتنتعش له النفس ويزهر لأجله الفكر وإن كان من قبل قفرا لا نبت فيه. وهكذا كانت موجة الثورات التي تحدت ركود عصورا طويلة آسنة قبل مئة عام. سرت

الروح الجديدة في البلاد كالكهرباء في جسد نصف ميت، تحاول أن تنعشه بالصدمة لينتصر نصفه الحي على موت النصف الآخر. ثم اهتاج الموج لدرجة مقلقة، حتى انتهى فصل من الحكاية وبدأ آخر، فبعد الثورة يولد الحلم، ثم يُختطف ثم يموت، ويتفرق دمه بين الخلائق ويتيتم من بعده الحالمون، ليبدأ الكابوس بتفاصيله الكاملة.

كانت الثورات والانقلابات ونوبات التمرد المتفشية في أقطار العالم بمثابة صافرة إنذار، انطلقت لتدوي في أرجاء فراغ أمني موحش، لتنذر بفوضى، ربما تطيح بكل نظام معروف. بدايات كثيرة لكوارث بدت كأن لا راد لها. هل هي حرب عالمية جديدة تطرق على أبواب العالم وتنتظر يدا خبيثة تفتح لها الأقفال وتوارب لها الأبواب؟ ربما كانت كذلك. إلا أن لحظة الانفجار لم تكن قد جاءت بعد.

في هذا التوقيت تحديدا ظهر الوباء. انتشر بسرعة في أقطار الأرض كطاعون العصور الوسطى الذي أودى بحياة ثلث قارة في بضع سنوات. إلا أن الوباء الجديد لم يقتل الأرواح، بل قتل الكلمة. أصاب المرض الجميع بالصمم والبكم، ليعم الصمت أرجاء كوكب صاخب في أشد لحظاته صخبا وضجيجا. قال البعض إنها لعنة إلهية أصابت مخلوقات رزقت ما لا تستحق، فعوقبت بسلبها إياه. قال آخرون إنها خطة لئيمة نفذتها النظم الحاكمة لإلهاء الجماهير عن مطالبهم وتشتيت انتباههم عن أهدافهم. آخرون ادعوا أن المرض انتشر بشكل مفتعل من قبل شركات الدواء لأهداف تجارية، إلا أن نظريتهم أثبتت فشلها حينما لم يظهر للمرض علاج.

الكثير والكثير من التساؤلات والشائعات تمخضت عنها عقول حائرة وألسنة معطلة محاولة منهم لتبرير ذلك الصمت الجبري، إلا أن أحدا لم يعرف الحقيقة، وما هي إلا بضعة أشهر حتى لم يعد أحد يبالي بمعرفة الحقيقة. فلتذهب الحقيقة للجحيم إذا كانت الحياة مهددة والبطون جائعة والأعراض مشاعا. وقد كانت هذه هي الحال تماما، فوضى عارمة أطاحت بالبلاد كطوفان نوح، إلا أن أحدا لم يكن يملك رفاهية النجاة على سفينة أو حتى الحلم بذلك. انتشرت الجريمة في كل مكان وفشلت الأنظمة الأمنية في احتواء كل هذا الكم من العنف والمرض الذي استشرى في جسد العالم كسرطان كريه، حتى أوشك على القضاء عليه تماما. وفجأة... وفي غمار هذا الصمت المرعب المصبوغ بلون الدم، أظلم العالم.

تم قطع الاتصالات والكهرباء وسحب كل أشكال الوقود من منافذها، ربما ظنوا بذلك أنهم يحاصرون ذلك الإرهاب الأسود ويضعون العقبات أمام انتشاره، إلا أن الأمر ازداد سوءا، اتسعت رقعة الجريمة لتشمل في كنفها شرفاء سابقين، فصار الأمين سارقا ليعيل آل بيته، وصار المسالم قاتلا ثأرا

لدماء أحبته المسفوكة، وصارت الحرة مومسا تحت تهديد الجوع والسلاح. أغلقت المدارس أبوابها وأوقف التجار تجارتهم وكاد العالم يعود لعصور الجاهلية الأولى. وفي ظل انقطاع الاتصالات كانت المنشورات تكتب وتوزع بغزارة للتحريض والحشد. كل من أمكنه طباعة منشورات بآلات كاتبة ميكانيكية أو حتى نسخها بيديه العاريتين، كان كجهاز التحكم عن بعد... يبث إشارته لجموع العقول والأيادي، فتقرر وتفعل.

من كان يقول الحقيقة حينها ومن كان يكذب؟ من كان يدافع ومن كان يهاجم؟ من كان يسلب الحق ومن كان يحاول استرداده؟ كلها أسئلة لم تلق إجابة، حيث غابت الصورة الكاملة وانحسر النظر نحو أجزاء متناهية الصغر فيها، فصار الناس كأسراب النمل المحتشدين في بسالة أمام قطعة صغيرة من الخبز الفاسد. وهنا بدأت النظم الأمنية بإصدار منشورات مضادة، في نفس الوقت الذي منعت فيه الطباعة والنسخ منعا باتا وصار امتلاك آلة طابعة أو كم مثير للريبة من الأوراق والأقلام سببا كافيا لاعتقال الأشخاص واختفائهم في غياهب السجون المظلمة، إلا أن كل تلك الإجراءات لم تتمكن من منع الجريمة أو منع المنشورات، بل إنها زادت بشكل ملحوظ، وزادت تناقضاتها وتنوع اتجاهاتها، حتى صارت الشعوب كالأسود الجائعة المحبوسة في مسرح روماني قديم، يأكل بعضها بعضا.

صار كل شخص قاتلا محترفا أو قاتلا محتملا، يتلقى أوامره من ورقة مقدسة تخبره بحقيقة ما، أو زيف ما، لا يهم.... ما دام يؤمن هو بأنها حقيقة. حروب أهلية ومذابح جماعية وجرائم تنفطر لها القلوب وتشت لبشاعتها العقول، ألبست العالم ثوب حداد صار لأجسادهم جلدا جديدا من طول ارتدائه. أعداد رهيبة قدرها البعض بثلث سكان العالم أو أكثر راحت ضحية تلك الأحداث الدامية في ذلك العام الأسود الكريه. حتى تمكنت أخيرا النظم الأمنية من فرض سيطرتها على تلك الفوضى.

وفي تلك اللحظة الفارقة التي أُنهكت فيها البلاد وصارت أقصى أحلامها النوم الهادئ لليلة كاملة، ثم الحصول على وجبة مشبعة ونظيفة تحت سقف خرساني آمن. في تلك اللحظة فرضت القوانين الصارمة اللازمة لضبط الفترة التالية. قوانين صارمة شعر الكثيرون أنها سفينة نوح المنتظرة التي سيقفز فوقها الجميع متخلين عن كل حلم سابق، مستسلمين تماما لتيار لا يعلمون عن وجهته شيئا. يكفي أنه سيبعدهم عن بحر الدم الذي صارعوا فيه الموت لوقت طويل بدا كأنه دهر كامل.

كانت من ضمن تلك القوانين، الاستمرار في منع النسخ والكتابة وتجريمهم، حتى لغة الإشارة تم تجريمها، في حين توفر الدولة بطاقات رسمية مطبوعة

ومختومة يمكن للناس التواصل من خلالها، ويمنع التواصل بأي شكل مخالف، لضمان استتباب الأمن في تلك الفترة الحرجة من تاريخ العالم.

وبالفعل استتب الأمن وعممت البطاقات، وتأقلم الناس مع الوضع الجديد حيث صار امتلاك أحدهم لبطاقاته بأنواعها المختلفة لا يقل أهمية عن امتلاكة لأطرافه وأعضاء جسده. بطاقات الروتين اليومي، بطاقات الرأي، بطاقات الثقافة، البطاقات المهنية المتخصصة، بطاقات المشاعر، بطاقات المناسبات، بطاقات الأخبار، بطاقات الدعابة، والكثير من البطاقات الأخرى التي صارت اللسان الجديد لسكان العالم الجديد.

وصار ذلك الماضي كجرعة زائدة من الذكريات الكريهة، تكاد تقضي على من يتذكرها مجتمعة. ففي كل عائلة كتيبة من القتلى معلقة صورهم على الجدران، كلهم شهداء رسميا رغم أنهم مقتولون بأيادي بعضهم، إلا أن التدقيق المبالغ فيه في الماضي لا يضيف للحظة الراهنة سوى ألم لا طائل منه، واضطراب لا داعي له وسط حالة الاستقرار التامة التي منّ اللـه بها على البلاد بعد طول مخاض!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول: التحليق

«قالوا السكون

أسطورة حمقاء جاء بها جماد

يصغي بأذنيه ويترك روحه تحت الرماد

لم يسمع الصرخات يرسلها السياج

وقصائص الورق الممزق في الخرائب والغبار

ومقاعد العزف القديمة والزجاج

غطاه نسج العنكبوت، ومعطف فوق الجدار»

نازك الملائكة

في صباح ما، منذ عشرة أعوام سابقة على انتحار الأم، في ذات المنزل الفسيح المبني على الطراز الأوروبي، ذي الطابقين والحديقة المزروعة بعناية. لم تكن تبدو عليه اختلافات واضحة عما هو الآن، اللهم إلا بعض التغييرات في ستائر ومفارش وبعض ديكورات المنزل، تلك التي يجب تحديثها كل عام. وقبو مظلم يقبع في هدوء تحت المنزل، كان يستخدم وقتها كمخزن للأغراض غير المستعملة.

هكذا تختلف الأماكن والجمادات في سنواتٍ عشر. أما الأشخاص فيختلفون بطريقة مغايرة. ربما بطريقة تستدعي استخدام مفردات أخرى. تحول، تشوه، ارتقاء، أو انتقال من طورٍ إلى آخر. فكما تتحول اليرقة إلى فراشة بديعة تتحدى الجاذبية والقانون، وكما تتفسخ البقرة النافقة لتتحول لكومة منتنة غير محددة المعالم، يمكن كذلك أن يتحول الإنسان بالكلية، وأن ينتقل من طورٍ لآخر. فالانتقال من الحياة إلى الموت، هو رحلة بدائية يخوضها كل الأحياء، والانتقال من حياة إلى موت إلى موتٍ آخر هو رحلة بائسة يخوضها معظم البشر. أما الانتقال من الحياة إلى موت ثم الترقي إلى حياة أسمى، فتلك تجربة فريدة تستحق التأمل... والكتابة.

وإن أنت أمعنت النظر في لحظة معينة على خط الزمن، بنظرة ميكرسكوبية فائقة الدقة. سترى على أفضل تقدير كل ما تحتويه تلك اللحظة بوضوحٍ كامل. إلا أنك لن تميز أبدا إن كانت تلك اللحظة خطوة على طريق البعث، أم خطوة على طريق الاحتضار. لن تميز اتجاه ميل المنحنى الواقعة عليه تلك النقطة، ولن تعرف أبدا مآلها على وجه اليقين، إن كان إلى نكوص أم إلى

ارتقاء. هذا القلب الرائق وذاك العقل المتقد، هذا النجاح الباهر وذلك الفشل الذريع، تلك الدماء التي تخضبت بها الميادين، وهذه الروعة والرفاهية التي عمت البلاد بعدها، كلها نقاط متناثرة على منحنى غير مرئي، لن يظهر بوضوح حقا سوى في النهاية، نهاية النهايات جميعا، تلك التي تتبع كل حكاية وتلي كل خاتمة، ولا تكفي لإدراكها حياة واحدة بشرية. ولهذا... ستظل قصة الحقيقة قصة لم تكتب بعد، فلن تتمكن من كتابتها سوى يد إله عليم. أما البشر، فسيكتب كل منهم عن نقطة واحدة استرعت انتباهه على المنحنى اللامرئي.

كالعادة وقفت المرايا المتناثرة على حوائط المنزل، تشهد بداية اليوم الجديد. متجمدة ثابتة كمراقب حيوانات محترف، ترصد تحركات هؤلاء المحدقين بها، تماما كما يرصدون هم تحركات القرود المتواثبة داخل أقفاص حديقة الحيوان.

تُرى... ماذا كانت تَرى؟

طبيبة أربعينية أنيقة، تتأهب للحاق بدوامها الوظيفي، كرئيسة لوحدة الطب البيطري بحديقة الحيوان. رجل مهندم تبدو صورته المنعكسة على سطح المرآة كمثيلاتها على مدار أعوام طويلة مضت. تشبهها بشكل مثير للحيرة وربما للملل، نفس الروتين الصباحي، نفس طريقة تمشيط الشعر، ملابس مختلفة وجديدة بنفس قياسات القديمة وألوانها ونقوشها، نظرة الرضا ذاتها، والابتسامة الصفراء التي تصلح للاستخدام في أي موقف كان، دون أن تُشعر الآخرين بالغرابة أو بالسعادة، بالاهتمام أو بعدم الاهتمام. ابتسامة كالخبز الجاف، يبقيك على قيد الحياة، دون أن يثير شهيتك أو يزعجها. مراهقة تبدو كأنها نسخة معدلة من أمها، تشبهها في جمالها وتتشبه بها في تأنقها الصباحي، وإن كان بدرجة أقل تتناسب مع المسموح به في مدرستها الثانوية.

أما الغرفة الصغيرة الكائنة في نهاية الرواق بالطابق العلوي، فلم تكن مرآتها تعكس أي وجه على الإطلاق. لم تنظر صاحبة الغرفة أبدا في عين المرآة، وبالتالي لم تتمكن المرآة أبدا من رؤيتها. كانت مخفية، في غرفتها المغلقة، متحررة من هذا الاحتياج السخيف لأن تُرَى، متخففة من عبء التجمل ومن ثقل الإضافة. لم تتقن كذلك فك طلاسم البطاقات ورموزها غير المفهومة، التي تقتحم وعيها الصغير على هيئة رسوم غير متقنة، أو ديدان صغيرة يلتف بعضها حول البعض الآخر.

حينما نثرت فتات الخبز بالقرب من عتبة المنزل ذات مساء، واستيقظت في اليوم التالي لترى ما حل به، وجدت أسرابا من النمل الصغير متراصة فوقه. كانوا يتزاحمون في بعض المواضع ويتباعدون في مواضع أخرى، ينزلقون قليلا عن الصف، ويرتفع سواهم عنه بقدر ضئيل، ما الفرق بين تلك التشكيلة

الجميلة من المخلوقات العجيبة، وبين التشكيلات الأخرى المرسومة على البطاقات؟ لم تفهم أبدا، إن كانت الثانية لغة الناس التي يستميتون في تعليمها إياها، حتى تتمكن من فهمهم ويتمكنون من فهمها. إذن فالنمل أيضا يحدثها بلغة مشابهة، إلا أن حكاياته يمكن أن تكون أكثر إثارة. هكذا كانت تعتقد، ولهذا لم يكن الوقت الذي تمضيه في المدرسة سوى سلسلة متواصلة من التعذيب لها ولمعلميها ولزملائها كذلك. فهم يتحدثون لغة البشر، وهي تحلم بفهم لغة النمل!

ثلاثة أيام مضت على بداية إجازتها المفتوحة التي أوصى بها مدير المدرسة، والذي كان قد أوشك على التصديق على قرار فصلها نهائيا، إلا أن تدخل الأهل وأصدقائهم حال دون ذلك... مؤقتا. ولذلك لم تكن تستعد لبداية يوم مدرسي كأختها، أو يوم عمل آخر كوالدتها أو حتى يوم جديد قديم كأبيها. وإنما كانت ليلى، الفتاة ذات السبع سنوات تجلس أرضا وسط حشد غفير من الألعاب المتراصة بجوارها على شكل دائرة، مركزها كومة غريبة لا يمكن التنبؤ بكنهها أبدا. والتي كانت خليطا شبه متجانس من الكعك المحلى، وفتات الخبز، وكمية لا بأس بها من الشوكولا السائلة، مضافا إليها بضعة أصابع من الموز المهروس، وكميات متفاوتة من الزبد والعسل والمربى وعصائر مختلفة النكهات، مزينة من الأعلى بالسكاكر الملونة، وينتصب وسطها العشرات من أعواد الثقاب.

أخذت تتأملها بإعجاب وشغف، ثم نظرت لضيوف حفلها الصغير المتحلقين حول الشيء - غير محدد المعالم ـ. تذكرت أنها لم تجهز أدوات مائدة لائقة، إلا أن شهيتها المتحفزة لم تسمح لها بالانتظار لوقتٍ أطول. دست يدها وسط الشيء لتغترف بعضا منه، ثم دست هذا البعض في فمها ليتلطخ وجهها وأطراف شعرها الأصهب الطويل بالعجين البني الزلق. دست يدها في الكعكة مرة أخرى لتضع كومة صغيرة أمام كل ضيف بلاستيكي أو محشو بالفراء. ثم استمرت في حشو فمها وتلطيخ أفواه الألعاب حولها بالعجين المسكر.

بعد برهة، ومع بداية الإحساس بالشبع، نظرت ليلى حولها لتجد عشرات الألعاب الملطخة بالشوكولا، وبقايا الكومة البنية ما زالت وسطهم، إلا أن أعواد الثقاب كانت قد غاصت بداخلها تماما. وهنا تذكرت أنها قد فوتت على نفسها أفضل جزء في الحفل، ألا وهو صنع الشعلات الحمراء الجميلة، التي تتراقص برشاقة فوق الكعكة، والنظر مطولا لذاك الكيان الغريب الذي طالما أثار فضولها وأبهرها.

أخذت تبحث حولها عن علبة الثقاب علها تجد فيها أي عود متبقٍ يساعدها في إتمام طقسها الاحتفالي. وبالفعل وجدت ثلاثة بداخل العلبة الملقاة بجوارها

على الأرض. ولأن الكعكة كانت قد فقدت هيئتها الأصلية ولم تعد صالحة لإقامة الحفل المشتعل على سطحها، رأت أنه من الأجدى البحث لهم عن سطح آخر. أمسكت بيدها مقص صغير وصنعت ثلاثة ثقوب في وسادتها المحشوة بالألياف الصناعية، ثم غرست فيها الأعواد المشتعلة. وضعتها فوق بقايا الكعكة وجلست قبالتها، تلتهم النار بعينين فضوليتين، تماما كما تلتهم النار الوسادة الصغيرة وسط الغرفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في كل غرفة من غرف المنزل، وكل المنازل التي لا تختلف عنه كثيرا، توجد لوحة معدنية كبيرة تتوسطها ثلاثة أزرار ملونة، الزر الأحمر يضيء للإنذار بحريق، ويُكبس لاستدعاء سيارة إطفاء، والأخضر لاستدعاء سيارة إسعاف، والأزرق لاستدعاء الشرطة. كانت تلك هي البدائل المناسبة للاستخدامات الطارئة للهاتف ولإنذارات الحريق، وأجهزة الإنذار المضادة للسرقات، التي اعتمدت جميعها في الماضي على حاسة السمع والقدرة الكلامية، ولذلك كان لا بد من ابتكار نظام حماية حديث لا يعتمد على تلك القدرات المندثرة، التي طوتها صفحة الماضي البعيد.

الآن... يكفي أن يضغط أحدهم الزر الأزرق، ليجد كتيبة كاملة من ضباط الشرطة تحيط بمنزله، وما هي إلا دقائق قليلة حتى تبدأ في اقتحامه، كذلك الأمر مع الزر الأحمر الذي يقوم باستدعاء سيارات الإطفاء تلقائيا إذا كبسه أحدهم، أو إذا أرسلت أجهزة استشعار الحرائق إشاراتها لهيئة الإطفاء مباشرة..

وهذا هو ما حدث تماما في ذلك الصباح. حينما لاحظ الأب والأم وابنتهما الكبرى وميض الأزرار الحمراء الباهرة، وأدركوا أن هناك جزءا من المنزل يتآكل في تلك اللحظة بفعل ألسنة اللهب، ألقى كل منهم ما كان في يديه وركض خارجا من غرفته للبحث عن مكان الحريق. لم تكن رائحة الدخان هي السبب الوحيد الذي قاد ثلاثتهم لغرفة ليلى، بل كان حدسهم المدرب جيدا على مثل تلك الكوارث التي كثيرا ما تتسبب بها الصغيرة في كل مكان.

فتح الأب باب الغرفة، ليجد الفتاة تدور حول نفسها مشرعة ذراعيها كأنها ترقص المولوية. كانت مغمضة العينين، تخفي نصف وجهها الأسفل بوشاح بنفسجي مربوط حول رأسها. ربما كان هذا الوشاح الصغير والنافذة المفتوحة هما السببان الوحيدان اللذان تسببا في إبقائها على قيد الحياة، وكفَّا عنها خطر الاختناق، لقد نجت من الموت إذن، وهو أمر يستحق الاحتفال، إلى جانب انتشار ألسنة اللهب البديعة في كل مكان بالغرفة، وهو ما تراه جميلا بقدر ما يراه الجميع مرعبا، كانت حفلتها الصغيرة تسير على أفضل ما يرام إذن، ولم يكن شيء مما يحدث يمكن أن يعكر مزاجها الصافي،

ويقاطع رقصتها التي تؤديها بكل ما تملك من شغف وسعادة. لم يكن جهاز الإنذار بالخطر بعقلها يعمل كالآخرين، فقد كانت تشعر بالأمان التام وسط النيران الساحرة، متيقنة من أن لحظة الخطر لم تحن بعد، وعندما تحين، ستقفز ببساطة من نافذة غرفتها كقرد صغير، تماما كما تعلمت من قرود الحديقة التي تعمل بها والدتها، ستعتلي الشجرة الكبيرة، ثم تقفز من فوقها على سطح المنزل، ومنه ستقفز من جديد نحو الشجرة المجاورة، وهكذا دواليك إلى أن تصل لأي مكان تبغي الوصول إليه. كانت تلك هي شبكة الطرق البكر التي استكشفتها بنفسها، وخاضت فوقها كل يوم مغامرة جديدة. في ذلك العالم الساحر المعلق بين سماء عصية على البلوغ وأرض لا تملك الجاذبية الكافية لإبقائها عليها.

حاول الأب الاندفاع للداخل إلا أن الدخان الأسود الكثيف الذي أوشك على سد مجرى تنفسه منعه من ذلك، في نفس اللحظة التي اقتحمت فيها زوجته الغرفة بالفعل كالطلقة الموجهة تجاه ابنتها، أمسكت بذراعها بعنف، ففزعت الفتاة وأفلتت نفسها ببراعة من قبضة أمها المحكمة. قفزت كالجندب فوق السرير ثم قفزت من جديد لتتعلق بالثريا المتدلية من السقف، وأخذت تنظر باستغراب للأشخاص الفزعين من حولها، الذين اقتحموا بلا وجه حق خلوتها المقدسة مع نفسها. ربما حانت اللحظة إذن وآن أوان الهروب. سقطت الأم على أرض الغرفة مغشيا عليها، في نفس الوقت الذي كانت نورسين فيه في رواق الطابق الأعلى، تسير بخطى سريعة واثقة نحو وجهة تعرفها، لتعود بعد لحظة أو أكثر، حاملة في يدها رشاش إطفاء الحريق. أغرقت المكان بالغاز الأبيض لتذوب فيه النيران تماما، وتتلاشى. لينتهي الحريق أخيرا مخلفا وراءه أمّا مغشيا عليها وأبا غارقا في نوبة من السعال العنيف، وفتاة تقف في وسط الغرفة تبحث عن أختها الصغرى التي اختفت من على الثريا، تماما كما اختفت ألسنة اللهب من أرجاء الغرفة. كأنهما ذهبا معا لمكان آخر يستكملان فيه رقصة النار التي قاطعها سكان عالم آخر موازٍ بمنتهى الاستخفاف.

لم يفق نورسين من دهشتها سوى سيل المياة الذي تدفق بعنف من نافذة الغرفة، مصيبا منتصف ظهرها كرصاصة. هوت على الأرض، في حين كان الإطفائي المعلق على النافذة لم يدرك بعد أن الحريق قد انتهى، وأن لا داعي لوجوده الآن. قفز اثنان منهما ليطمئنا على هؤلاء المستلقين كالقتلى على أرض الغرفة، وما هي إلا دقائق حتى فتحت أبواب المنزل أمام المسعفين وأفراد الأمن. كان عليهم بعد أن يفيقوا ويتلقوا العناية الصحية المناسبة، أن يتخيروا بطاقة من اثنتين «حادث طبيعي ناتج عن سوء استخدام أدوات منزلية» أو «حادث مفتعل به شبهة جنائية وأرغب في تقديم بلاغ رسمي للبدء في تحقيق». لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تعرض عليهم فيها البطاقتان، ولم تكن كذلك المرة الأولى التي ينتقي فيها كل منهم البطاقة الأولى من

دون تفكير. ليرحل بعدها أفراد الأمن والمسعفون ورجال الإطفاء، مخلفين وراءهم الكثير من الفوضى، وتساؤلا ألفه الجميع، ترى أين ذهبت الفتاة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تطل ليلى البقاء أعلى الشجرة في أثناء مراقبتها لرجال الإطفاء والشرطة وهم يقتربون بسياراتهم من المنزل. قفزت ثم قفزت ثم قفزت، من شجرة إلى سطح ومن سطح إلى شجرة. رغم أن تصميمات حدائق المنطقة السكنية ساعدتها لدرجة كبيرة على التنقل من مكان لآخر بطريقتها الخاصة العجيبة، فإن أشجارها لم تكن هي المفضلة لديها. كانت متوسطة الطول مشذبة على نحو مثير لإعجاب الجميع عداها. فالاعتناء المبالغ فيه بها جعلها نسخا شبه متطابقة، نظيفة ومنمقة وتحمل من الأثر البشري ما لا تخطئه العين، ولطالما كرهت الآثار البشرية على الطبيعة.

لم تعد طرقات القاهرة تختلف عن مثيلاتها بأوروبا في شيء. تخطيط هندسي على أعلى مستوى، يديره نظام مروري إلكتروني يمنح القيادة متعة خاصة وتأثيرا مهدئا لذيذا. كل شيء اليوم مشمول في معية النظام الإلكتروني المتقدم الذي يجعل حياة المواطنين وقضاء متطلباتهم أمرا في غاية اليسر. ناهيك بانخفاض أعداد السكان بشكل كارثي بعد انقضاء العام الأسود بكل الخراب الذي جلبه على العالم وعلى مصر. إلا أن اللـه قد أحدث بعد ذلك أمرا حينما صارت تلك القلة قائمة من قوائم الحضارة الجديدة، التي تكفي مواردها مواطنيها وتفيض. تلك الحضارة التي منحت مواطنيها الناجين ألوانا من الرفاهية لم يجرؤوا يوما على الحلم بها أو تخيلها.

كان التخطيط العمراني الجديد لمدينة القاهرة مصمما بحيث تكون منطقة وسط القاهرة هي قلبها النابض، منطقة الخدمات التي تحتوي على كل المؤسسات الحكومية ومقرات الشركات والمدارس، وعلى رأسها الشريان الرئيسي لهذا القلب وهو مركز البطاقات الرئيسي، الذي تترأسه السيدة الأسطورة ناتالي فروست. بقعة واسعة من المباني السامقة والصروح الضخمة التي تغطي ظلالها الطرقات حتى توشك أن تحجب عنها نور الصباح، ولم يكن ذلك ليؤثر على نفسية المواطن وإنتاجيته في شيء، حيث ينهي كل منهم دوامه عصرا عائدا لجنته الصغيرة الكائنة في المنطقة السكنية المضفرة بالحدائق، في محيط شاسع يؤطر منطقة الخدمات، لكل أسرة بيتها الخاص ذو الطابقين المشيد على النمط الأوروبي الساحر، تحيطه حديقة غناء تتولى زراعتها والعناية بها هيئة مختصة بذلك للحفاظ على نضارتها واتساقها مع التصميم العام للمنطقة. طرقات متسعة تفصل بين المربعات السكنية وبين كل منطقة وأخرى، طرقات تخلو تماما من ضجيج المواصلات العامة وزحامها حيث لكل مواطن سيارته الخاصة.

«مصر... مكان جميل للعيش فيه» عبارة خُطت على لافتات كبيرة تقابلك على الطريق أينما ذهبت، عبارة نقشت في عقول المواطنين ونفوسهم.

استكملت قفزاتها العالية وركضها السريع كقرد، إلى أن وصلت لأسوار حديقة الحيوان. خلف تلك الأسوار بدت الأشجار الشاهقة الطول والتي لا تحمل على كاهلها عبء الذوق الإنساني، الذي يبدو في أركان الطبيعة كالأختام على ظهور أبقار المزارع. كانت حرة كظباء جبلية، ضخمة تبدو رؤوسها كرؤوس الجبال. تسلقت السور الحديدي في أقل من دقيقة وتوغلت في الحديقة بسرعة. فرغم نور الصباح الفاضح ووجود عدد من الحراس لا بأس به، فإنهم لا يسببون لها الخوف كما يفعل الحارس الليلي ذو اللحية السوداء. كان يراقبها ويدرك ما تفعله وكيف تفعله، ولذلك كانت تهابه، لأنه يرى. أما الحراس الصباحيون فقد أعماهم النور وشغلهم الزحام عن ملاحظتها.

وبالطبع توجهت مباشرة نحو أقفاص القرود. بحسبة بسيطة، يمكن التأكد من أن الوقت الذي قضته في هذا المكان بصحبتهم. أطول بكثير من أي وقت آخر قضته مع أصدقاء أو أقارب أو زملاء دراسة. كانت ترافق أمها باستمرار لمقر عملها في الحديقة، إلا أنها لا تقضي معها أكثر من بضعة دقائق. تفر بعدها لمراقبة أصدقائها القرود وتعلم حيلهم في التسلق والقفز والأكل والمزاح.

خبرات كثيرة مشوقة. أثرت عالمها الصغير ونأت به أكثر عن عالم الكبار وصغارهم. اقتربت بوجهها الملطخ بالشوكولا من القفص، وأخذت تراقب في هدوء تلك الكائنات السعيدة في أثناء تأديتهم لطقوسهم اليومية التي تحفظها جيدا عن ظهر قلب. بالطبع لم تكن تجيد العد، إلا أنها علمت على وجه اليقين أن أحد أصدقائها ليس موجودا. ذلك العجوز اللطيف ذو البقعة البيضاء الكبيرة المطبوعة على صدره، كأنها لحية متدلية. أين هو؟ بالتأكيد مختبئ في المخبأ الخشبي.

أدارت ظهرها للقفص وتربعت على الأرض لتجول عيناها في أرجاء المكان. الزحام يوشك أن يبدأ، وأمها توشك أن تصل، لتلقنها درسا مكررا في حسن السلوك. رفعت رأسها للأعلى متأملة ذؤابات الأشجار السامقة حولها، والشمس المتبدية من خلفها على استحياء. كانت ترى الشمس خلف غصون الأشجار المتشابكة وأوراقها الكثيفة كنجوم المساء. يختفي وجهها المزعج الفاضح الذي تكرهه، لتبدو بمظهر ألطف وأكثر وداعة، كنجوم متناثرة على الأوراق الخضراء. منظر جميل يذكرها بشجرة عيد الميلاد البهيجة، بعد أن تنتهي احتفالاته الصاخبة، ويرحل الزوار الصاخبون، ولا يتبقى سواها هي والشجرة المزينة كعروس، لتشرع ذراعيها كما تحب أن تفعل وتدور حول نفسها في حلقات تدور في ذات اللحظة حول العروس البراقة. هذا هو الاحتفال الذي كانت تنتظرة في رأس كل عام. وهذا ما كانت تتذكرة عنما

تبصر النجوم المتناثرة على الوريقات الخضراء. كانت مستغرقة في أفكارها في حين كانت يد سوداء صغيرة تخرج من بين قضبان القفص وتعبث في شعرها. تربت عليه تارة وتفتش فيه تارة، ثم تلتقط منه بعض الفتات وتضعه في فم ضاحك كبير. فهي فرد من أفراد عائلتهم السعيدة، وتستحق منهم تلك العناية الحنونة التي يغدق بها كل منهم على الآخر. منذ وقت ليس ببعيد كان منظر فتاة صغيرة ذات شعر أحمر طويل، تجلس بجوار قفص القرود، في أثناء التقاطهم أشياء من شعرها وأكلها، يبدو غريبا بعض الشيء. إلا أنه بعد فترة من التعود لم يعد يلفت نظر الزوار السعداء، كما لم يعد يثير استغراب عمال الحديقة المنشغلين دائما، الذين عرفوا ابنة مديرة الوحدة البيطرية على أنها فتاة معاقة ذهنيا بشكل ما، ما لا يجعل الاهتمام بغرابة أطوارها تصرفا رشيدا.

مدت ليلى يدها نحو شعرها وأمسكت بيد القرد الصغير، التفتت لها ولم تستطع سوى الابتسام أمام تلك العينين اللامعتين بقوة، لمعة لا توجد أبدا في أعين البشر، لمعة تستحق أن تزين بها شجرة عيد الميلاد خاصتها، مع الكرات البراقة وفتات الشمس المنثور. تذكرت القرد العجوز فنهضت وأخذت تبحث عنه في أرجاء القفص فلم تجده. وعندما دققت النظر أكثر، وجدت ذيلا متدليا من المخبأ المعلق بالأعلى، متدليا تماما لا يتحرك ولا يهتز. وبجواره جلست بعض الإناث الأصغر سنا يربتن عليه تارة، ويخبطون جسده بعنف تارة أخرى. هل مات؟

هي تعلم الموت البشري جيدا، وقد رأته من قبل، وتابعت بتركيز شديد كل ملحقاته، إلى أن ووري الجسد تحت التراب. في البداية أفزعها الأمر، وفي النهاية اطمأنت عندما رأت الزهور والأعشاب تنبت بين القبور وفوقها. هم ينبتون مرة أخرى ويعثروا بشكل ما على طريق جديد نحو الأعلى، لا داعي للقلق إذن. هكذا فكرت وهكذا تصالحت تماما مع فكرة الموت.

ولكن هل مات القرد؟ تسمرت في مكانها كمسمار بضع دقائق وعندما لم تجد أي تغيير في حركة الذيل أو في سلوك الإناث ركضت مسرعة نحو أقرب عامل، وجذبته بشدة من قميصه، استدار العامل غاضبا وأوشك أن ينهال ضربا على وجه الطفلة التي تتصرف بلا أدنى إحساس باللياقة، لكنه فوجئ بابنة الطبيبة المعاقة ذهنيا كما كانوا يعلمون جميعا فتراجع واكتفى بإبعادها عنه والمضي بعيدا. لكن الفتاة عادت لتجذبه وبشكل أعنف من ذي قبل، كانت تهرول بيديها وتشير نحو القفص، ففهم أنها تريد أن تخبره بشيء ما عن القرود. توجه معها حتى وصلا، فأشارت باتجاه الذيل المتدلي، ولم يستغرق العامل وقتا طويلا حتى فهم سبب تصرفات الفتاة السخيفة. طمأنها بإشارة من يديه فهمت منها أنه ذاهب لمكان ما ولن يتأخر. وبالفعل لم تمر بضع

دقائق، حتى عاد وفي يديه سلسلة مكتظة بالمفاتيح. وقبل أن يفتحه، أخذ يحاول زحزحة الجسد الساكن بالأعلى بعصا طويلة ليسقطة. سقط الجسد وهاجت القرود وماجت. وليلى احتقنت عيناها بالدموع وسط وجه متجهم صلب. فتح الرجل القفص وسحب الجثة بسرعة، ثم عاد فأغلق القفص من جديد.

بالتأكيد سيدفنه الآن، هكذا فكرت، ولم تشك في ذلك، هذا هو البروتوكول المتبع في التعامل مع الموت. يتوقف الجسد عن العمل، فنحفر حفرة في الأرض ونخبئه فيها كالبذور، ليعود وينبت مرة أخرى ويستكمل حياته بشكل مختلف، في جسد جديد حي. وبالطبع لا بد لها من حضور تلك الطقوس المقدسة لإعادة إنبات صديقها العجوز، ولذلك تبعت العامل كظله، وتجاهلها هو كما يتجاهل الأشخاص ظلالهم. سارا معا إلى أن وصلا لبيت الضباع، دلف مسرعا حاملا في يده جثة القرد كما يحمل الناس أكياس القمامة. ثم ألقاه أمام أحد الأقفاص كما تلقى أكياس القمامة. وفي لحظة مرعبة لم تكن تفهم فيها ليلى ما يحدث. كان العامل يفتح القفص بيد ممسكا بيده الأخرى عصاه الكبيرة التي يلكز بها الضباع ليبعدهم عن الباب، وبسرعة حمل الجثة وألقاها أمامهم، ثم أقفل القفل بالمفتاح. نظر ببرود نحوهم ثم مضى للخارج.

تحلق الضباع حول الجسد الصغير، صاح كل منهم في وجه الآخر بصوت لم تسمعه بالطبع، إلا أن وجوههم الغاضبة وعضلات جسدهم النافرة ترجموا بشكل ما في وعيها بصوت مماثل. انقض الذكر عليه وثبته بقدمه وأخذ ينهش لحم عنقه. تمزقت اللحية البيضاء بين أنيابه وانبثقت منها أشلاء مدممة متعلقة ببعض الغضاريف والعظام التي حاولت التماسك حتى النهاية، إلا أنها ما لبثت وتفتت قطعا صغيرة متناثرة هنا وهناك. تتشممها الإناث وتلعقها بحثا عما يؤكل بها.

كانت ليلى تراقب المشهد المرعب بعينين مفتوحتين، تغشاهما دموع لزجة كأن قوامها السائل اختلط بكثافة الحزن فصارت كثيفة كدم متخسر. لماذا فعل العامل ما فعل؟ هل كان يكرهه؟ ولماذا يكرهه وقد كان ظريفا لا يكف عن اللعب؟ لماذا لم يواره تحت تراب الحديقة ليبعث منها؟ وكيف سيبعث الآن؟ من أحشاء الضبع؟ أم من غائطه؟ كيف يمكن أن يكون شكل كائن بعث من غائط ضبع؟ هذا مبعث لا يليق سوى بشيطان رجيم. استمر الذكر في تناول وجبته بنهم. واستمرت في المراقبة بهدوء. ربما لو بكت وهرعت نحو حضن أحد الكبار، لسرى عنها هذا قليلا، لكنها لم تكن تتصرف بتلك الطريقة أبدا. بخطوات بطيئة، خرجت من بيت الضباع. سارت مشدوهة في طرقات الحديقة مضطربة الصدر مغصوصة الحلق سلكت نفس الطريق لنفس القفص حيث كان يسكن صديقها العجوز، ولم تكن وحدها المتخذة تلك

الوجهة. كانت الأم الفزعة تسلك طريقا آخر لنفس المكان، حيث تعلم جيدا أنها ستجد ابنتها. وفي تقاطع طريقين مختلفين أبصرت إحداهما الأخرى. حدقت ليلى بها بنفس الوجه. لم يتغير شيء على الإطلاق لم تصدر عنه نظرة خوف أو احتياج، أو حتى إيماءة تدل على المفاجأة، فقط لا شيء. راقبتها بهدوء وهي تقترب مسرعة وفجأة وجدت يدها تنهال على وجهها الصغير لتصفعه، صفعتها بعنف غير مسبوق. فقد كان حرقها للغرفة بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. أخذت أنفاسها في التسارع وهي تحدق فيمن حولها، بعينين متسعتين لا تنهمر منهما الدموع، حتى جذبتها أمها بعنف وضمتها إلى صدرها بشدة. ماذا يمكن أن تخبرها؟ هل ستطلب منها التصرف بشكل أكثر عقلانية؟ ألا تتعامل مع النار بتلك الطريقة؟ ألا تقفز من نافذة المنزل مرة أخرى، وألا تتسبب في كل تلك الفوضى؟ هل ستطلب منها أن تكون شخصا آخر؟ أم ستخبرها بأنها تتمنى لو كانت شخصا آخر؟ هل ستخبرها بأن حياة الجميع ستكون أفضل من دونها؟ وبأن خوفها المستمر عليها أوشك أن يتجاوز حبها لها؟ لا لم تقل أيا من هذا.

فقط أفلتت الفتاة من حضنها وضبطت جهازها اللوحي على بطاقة «كوني مهذبة» رغم علمها أنها لن تفهم منها شيئا، في تصرف روتيني روبوتي آخر، ربما يستهدف رتق صورتها الرصينة أمام موظفيها، والتي خدشت توا بصفعها للفتاة. حدجت الفتاة أمها بنظرة غير مفهومة، أمسكت بمعدتها، ثم انفجر من فمها القيء، ليغطي ملابسها وملابس أمها وجهازها اللوحي، ثم سقطت أرضا مغشيا عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكثر من ساعة قضتها ليلى مستلقية على الأريكة الجلدية بمكتب مديرة الوحدة البيطرية بالحديقة، أو بلفظ آخر، في صومعة الأم التي تقضي بها معظم ساعات يومها تكافح على منحنى صاعد لنجاحها الوظيفي. في البداية حدقت فيها قليلا، ثم نظفتها، واطمأنت إلى أنها نائمة ليس أكثر ثم انصرفت لعملها. الطيور ما زالت تمرض باستمرار، ومرة أخرى اقتحم أحدهم مطبخ إعداد طعام الحيوانات ليلا مخلفا وراءه الكثير من الفوضى. لكن كل تلك الأمور لم تكن السبب في التوتر المستشري في عقل الأم وجسدها، هل هو الحريق الصباحي ثم اختفاء الفتاة هما ما جعلاها تبحث في الدرج المغلق عن حبوبها القديمة، وتتجرعها بنهم لتكف يداها عن الارتعاش وقلبها عن إصدار كل هذا الضجيج الداخلي. ربما وربما لا، فهناك سبب آخر يحدق بأعين ميتة في وجهها من بعيد. ذاك القرار اللعين الذي تكافح من أجل تمريره وزارة الصحة بتحويل حديقة الحيوانات لمعرض للحيوانات المحنطة، بهدف تجنب أي عدوى محتملة إلى جانب توفير أطنان الطعام المهدرة على تلك الأفواه المفتوحة باستمرار. معرض للحيوانات المحنطة؟! تبا لهم.

ألقت بنفسها على المقعد، وفي كل ركن من المكتب الفسيح أطلت عليها خيالات كئيبة لطيور وزواحف ورؤوس غزلان متخشبة، بأعين بلاستيكية وبرائحة الفورمالين. كابوس جديد، يتخلله كابوس عابر لحريق كاد يلتهم المنزل برمته، في حين عجزت هي أن تقوم بأبسط فعل ممكن لإنهائه. حمدا للـه أن هناك من يحسن التصرف بالمنزل، نورسين، التي لا تكف عن إثارة إعجابها، والتي لم تفشل في اختبار قط. ابتسمت للفكرة، ثم لم تلبث أن تبددت الابتسامة حينما وقع بصرها على الفتاة الممددة على الأريكة. كابوس آخر، بالطبع هي كذلك.

بعد قليل، إنصهر وعيها في كومة الأوراق المكدسة على المكتب، والفتاة، أفاقت ببطء، ثم حملت جسدها الصغير وعالمها المحيط به كفقاعة، وخرجت من دون أن تلحظ الأم. إلا أن أعينا أخرى كثيرة في الخارج لم تكف عن التحديق فيها. أزاحت خصلات شعرها الطويل الملتصقة بوجهها بفعل العرق، ثم أزاحت من عقلها الأعين والنظرات والأشخاص، وركضت. كأنها تهرب من صورة كئيبة ملتصقة برأسها، عليها أن تركض إلى أن تسقطها منه فلا تعود إليه أبدا.

هل تصرخ؟ أم تبكي؟ أم ترتمي في حضن أحد الكبار؟ لا لا يمكن. الشجرة. طرأت الفكرة على عقلها فتشبثت بها. وواصلت الركض إلى أن وصلت لذات الشجرة العملاقة. نظرت للأعلى فأبصرت طريقا تعرفه نحو مكان يخصها وحدها، حيث تغادر الأشياء جميعا في رحلة صعود جميلة. كان نهارا قائظا شمسه متوحشة، ونسيمه شحيح، إلا أنها واصلت الصعود، وفي أعلى موضع، جلست على فرع غليظ وفتحت ذراعيها على آخرهما لتضم الشجرة، كان صدرها يعلو ويهبط مفرغا ما فيه من بقايا للهاث، وعندما نفد، أخذت تستنشق الهواء بشراهة العائدين من الموت، ألصقت وجهها بها وتشممتها بعمق. وهناك طفرت من عينها دمعة متناهية الصغر... أو كادت، وتمنى عقلها الطفل لو أن الشجرة تبصرها أو تشعر بما يعتمل في صدرها من هم. لقد شعرت طوال حياتها بروح شفافة تسكن تلك الكائنات المتعالية فوق العالم، والآن هو أكثر وقت تحتاجها فيه.

نزعت مشبك شعرها وقلبته في يديها، ثم وضعت طرفه بين أسنانها ونزعت منه القطعة البلاستيكية اللينة، لينكشف من تحتها الطرف المعدني الحاد. وأخذت تحفر على جذع الشجرة. رسمت – للمرة الأولى في حياتها – صورة بدائية ركيكة لقرد ميت، أمام ضبع قبيح فاغر فاه. لم تكن خطوطا واضحة أو حسنة بأي شكل ممكن، لكن الشجرة ستفهم، أو ستشعر.. حتما ستشعر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخيرا أوشكت الشمس على مغادرة السماء، وانقضى نهار كئيب بدا كأنه بلا نهاية. أعدت مائدة الغداء وتحلق حولها الجميع ما عدا الصغيرة التي تغط في نوم عميق بغرفة أختها في الأعلى. وقبل أن تقام المائدة، ملأت نورسين طبقا أرجوانيا صغيرا بالبطاطا المقلية وصعدت لغرفتها. وهناك، وضعت الطبق أرضا، وأجلست حوله عددا من الدمى الناجية من الغرفة المحترقة. ثم جلست على الفراش وأخذت تداعب أنف الصغيرة وتدغدغها حتى أفاقت. عندها جلست أرضا لتشارك الدمى مائدتهم، توزع عليهم أصابع البطاطا المقلية وتتناول بعضا منها، وبطرف عينها تراقب الصغيرة التي دفعها الفضول والجوع للنهوض من الفراش. سارت ببطء نحو المائدة المقامة أرضا بتباطؤ مفتعل، فأمسكت نورسين بكومة من البطاطس بنهم مفتعل كذلك، ثم أقحمتها في فمها، انتفخت وجنتاها وبدت على وجهها علامات تلذذ مبالغ فيها. حينها فقط أسرعت ليلى بالجلوس واحتضنت الطبق البلاستيكي وانقضت على ما فيه من طعام، وأنهته في دقائق قليلة. ثم مسحت شفتيها ووجهها الملطخ بالزيت في كفيها.

أشارت نورسين نحو أحد الدمى، ثم نحو أخرى وأخرى، ثم حكت رأسها وقلصت حاجبيها كأنها تفكر بشيء ما. كانت ليلى تشاهد حركات أختها المصطنعة بتركيز شديد، ها هي تطرقع بأصابعها وتتسع عيناها في استقبال فكرة ما، وها هي تجرد دمية باربي من ملابسها وتحملها معها للحمام الملحق بالغرفة. قامت ليلى وتواثبت خلفهما، وأقحمت رأسها في فتحة الباب التي تركت عمدا لتسمح بالمراقبة. راقبت أختها وهي تخلع فستانها القصير وتفرك جسدها وجسد الدمية باللوفة والصابون، إنه وقت الاستحمام إذن. قفزت ليلى في حوض الاستحمام بكامل ملابسها التي حملت أثرا من كل لحظة مرت عليها في ذاك اليوم القاسي. واستسلمت للماء المنهمر فوقها، وللصابون الذي راح يمحو من فوقها الآثار الواحد تلو الآخر. ومن نفسها بعضا من الحزن والقلق.

لقد تمت المهمة بنجاح، تلك المهمة التي لا يقدر شخص آخر على القيام بها، تنظيف ليلى وتعليمها بعضا من السلوكيات المقبولة التي ربما تتراكم يوما ما لتطغى على غرابتها وغربتها معا. والآن لم يتبق سوى اللمسات الأخيرة على ثلاثتهم ليصرن لائقات للنزهة الليلية التي سيقمن بها بعد قليل. بعض التمشيط والعطر وانتقاء رداء مناسب. ولها هي قدر لا بأس به من مساحيق التجميل وفستان أبيض قصير تنافس به تأنق باربي الصغيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انسلت الفتاتان بهدوء من المنطقة السكنية، متوجهتين نحو منطقة الخدمات حيث توجد النوادي الاجتماعية والمقاهي والمطاعم والأماكن الترفيهية التي

يقضي بها الناس أمسياتهم. أحكمت نورسين قبضتها على كف الصغيرة مقتحمة زحام النادي المحبب إلى قلبها، لم تكن ترى في الهدوء سوى فراغ، عدم، جدب لا ينبت في عقلها أي فكرة ولا في قلبها أي شعور. أما هنا، فالناس منثورون في كل مكان، وهي تتنقل بينهم كعصفور بين أكوام الحبوب، يقتات عليها ليعيش ويكبر. فكثرة الناس تعني كثرة الأعين، وفي وجود أعين تراقب وترصد تفاصيلها الصغيرة ترى نفسها تتجلى وسط الحشود كإلهة، تشعر بقدميها ترتفعان من فوق سطح الأرض. وعندما تغادرهم، تبدأ قدماها في التثاقل لتنغرس في الأرض من جديد. وبغرفتها المغلقة، حيث لا أحد يرى، ولا عين تراقب، ولا عقل يهتم، تظل تراقب نفسها في المرآة، عل نظراتها لنفسها تتمكن من رفعها مرة أخرى.

حاولت ليلى التملص من كف أختها فلم تستطع، ولم تمكنها أعوامها الستة من رؤية شيء أمامها سوى المؤخرات وظهور المقاعد والأكواب المتراصة على الطاولات، على خلفية من الألوان الصارخة لأضواء النادي الاجتماعي والبضائع المتراصة بواجهات العرض والألعاب الترفيهية وجوائزها الملونة بشدة. لم تكن تحب الزحام والصخب اللوني المثير للأعصاب ولذلك لم تتردد بانتظام على النادي الاجتماعي كأختها، كانت تشعر بوعيها يتشتت ويتلاشى بين التفاصيل المكدسة هنا وهناك، كانت تشعر بالعمى، عمى ملون ومحكم الغلق عليها كقفص القرود!

وهكذا جرتها نورسين خلفها جرا ككلب صغير، حتى جلست على طاولة ما، يتحلق حولها بعض من الأصدقاء. لا يكفون عن عرض البطاقات الواحدة بعد الأخرى على أجهزتهم اللوحية. في عملية بدت للصغيرة في غاية التعقيد والصعوبة. أن تنتقي الأفكار سابقة التجهيز وتعرضها في الوقت المناسب وتتابع عرض كل شخص يجلس لبطاقاته، ثم معاودة الاختيار للرد المناسب وهكذا دون توقف. تتالٍ مرهق بدا لها في منتهى الاستحالة.

«رئيس النادي رجل صالح يستحق إعادة الانتخاب».

«رئيس النادي ارتكب عددا من الأخطاء التي وعد بتداركها الفترة المقبلة».

«رئيس النادي رجل صالح يستحق إعادة الانتخاب».

«أنا لا أهتم بهذا الموضوع السخيف».

«أنت وقح».

«أنت جميلة اليوم».

«أنت جميلة اليوم».

«لقد جربت ماسكرا بيبي لين الجديدة وهي الأروع على الإطلاق».

«لقد جربت ماسكرا ماكس فاكتور الجديدة وهي أفضل ماسكرا استخدمتها في حياتي».

«لقد جربت ماسكرا بيبي لين الجديدة وهي الأروع على الإطلاق».

«لقد جربت ماسكرا بيبي لين الجديدة وهي الأروع على الإطلاق».

«أنا لا أهتم لهذا الموضوع السخيف».

«أنت وقح».

«أنت جميلة اليوم».

«هل رأيت آيفون الجديد؟ إنه باهر».

«يمكنني فعل أي شيء لاقتناء آيفون الجديد، إنه باهر».

«يمكنني فعل أي شيء لاقتناء آيفون الجديد، إنه باهر».

«رئيس النادي رجل صالح يستحق إعادة الانتخاب».

«رئيس النادي ارتكب عددا من الأخطاء التي وعد بتداركها الفترة المقبلة».

«لأنك صديقتي المفضلة سأهديكِ آيفون الجديد!»

ترى كيف يفعلونها بتلك البساطة؟ وفيم يتحدثون؟ هل ستجد لديهم إجابات لأسئلتها الكثيرة إذا تعلمت تلك الآلية العجيبة؟ هل سيعرفون كيف سيبعث القرد من غائط الضبع؟!

لاحظت نورسين شرود الطفلة، ورغم أنه أمر معتاد، ما زال يثير في قلبها بعضا من الشفقة. أمسكت يدها وجرتها من جديد نحو أكشاك الألعاب. الدمى في كل مكان، بكل شكل ممكن. لكنها لم تثر انتباهها ولو قليلا. توقفت الفتاتان أمام كشك التصويب، ولم تحتج أي منهما لقراءة البطاقة المعلقة التي تشرح كيفية اللعب، فإحداهما تحفظها عن ظهر قلب والأخرى لا تكترث. ناول الفتى نورسين بندقية، فمدت يدها بتباطؤ مقصود حتى التقطتها، في حين ظلت عيناها معلقتين في نظرة الشاب المشبعة بالفضول. رفعتها قليلا أمام وجهها في وضعية التصويب، إلا أنها كانت توجهها نحوه هو، متجاهلة الهدف الذي يجدر بها إصابته، في سبيل هدف آخر أسهل. ارتدت يدها قليلا ارتدادة إطلاق النار دون أن تطلق شيئا، وابتسمت، فضحك، فزادت ابتسامتها اتساعا. وأخيرا انتزعت بصرها من على وجه الشاب وركزت على هدف مستدير لا يكف عن الحركة، أطلقت خمس رصاصات متلاحقة إلا أن واحدة

لم تصب الهدف. لقد باءت كل محاولاتها بالفشل. ناولته البندقية وعلى وجهها نظرة حزن مرسومة بحرفية شديدة، ليجد نفسه أمام فتاة هي الأجمل وسط كل الموجودين، يلامس طرف فستانها الأبيض القصير طرف شعرها الأصهب بالغ الطول، تستجديه بعينين زرقاوين، وفم مصبوغ منكمش من جراء حزن مفتعل. معركة خفية بين إرادتين وقلبين، إحداهما صلبة تدعي الهشاشة، والأخرى رقيقة تحاول التظاهر بالصلابة. وما هي إلا دقيقة حتى حرر الشاب الدمية من الحبل الحريري ليقدمها لها. أسعدتها الهدية ولم تفاجئها. فسحبتها من بين يديه بسرعة بعد أن تهلل وجهها فرحا وأخذت تتقافز كطفل سعيد. تذكرت فجأة أن يديها تمسكان دمية وردية كبيرة، وأن الكف الصغيرة التي كانت تحكم قبضتها عليها طليقة في مكان ما، لقد فرت الصغيرة مرة أخرى. كانت الساعة قد تخطت الحادية عشر مساء، والطرقات مظلمة، لكنها تعلم تماما أن أختها تملك غريزة حيوان يجيد البقاء والعودة لجحره وقتما يشاء. عادت لطاولة أصدقائها لتكمل السهرة، بينما سلكت الصغيرة طريقا آخر أكثر ألفة.

مشت في طريق تعرفه نحو الحديقة، بمحاذاة الجدران والأسوار لئلا تلفت الأنظار. كانت متعبة أكثر من المعتاد ولذلك بذلت الكثير من الجهد لتسلق سور الحديقة الحديدي، وأكثر قليلا لتتمكن من تسلق الشجرة. وعندما وصلت لأبعد موضع، حيث تجلس دائما، تراجعت بذعر حتى كادت قدمها تنزلق. لقد كانت المفاجأة التي لم تنتظرها بل ولم تتوقعها أبدا، لقد تحدثت الشجرة!

أو هكذا فهمت. وهل يوجد تفسير آخر لتلك لرسوم المجاورة لرسمة القرد الرديئة التي حفرتها صباحا؟ رسم دقيق لقرد صغير ملقى على الأرض وعلى يساره سهم يشير لتصوير آخر لنفس القرد يطير نحو السماء، وبعدها سهم جديد يشير له مرة أخرى يضحك وسط حديقة بديعة محاطا بالزهور والفراشات الملونة. والأكثر غرابة، سهم أكثر وضوحا يشير للقرد، مكتوب في مقدمته بخط عريض (ق ر د / قرد).

في البداية أصابها الذعر، ثم الاستغراب، ثم الفضول، ثم السعادة، ثم الفضول من جديد. هل يمكن أن تكون رسالة من الشجرة؟ بالتأكيد هي كذلك، وماذا يمكن أن تكون غير هذا؟ أخذت تمر بأصابعها الصغيرة على وجه القرد الضاحك، وترقرقت عيناها بالدموع، ثم على الحروف المتفرقة، ثم على الكلمة، وللمرة الأولى لم تبد لها الحروف كالثعابين المتشابكة، بل بدت نقشا لطيفا مثيرا للفضول، فإن كانت الشجرة تريد أن تخبرها شيئا ما، فهي ترغب في معرفته. وإن كانت بعثت لها برسالة، فمن المحتمل أن تبعث لها بأخرى. وهو أمر عظيم. وبعد فترة طويلة من التحديق في الحروف أرخت رأسها على الجذع الضخم وأطرقت، محتفظة في رأسها بتلك الفكرة المدهشة التي لم

تنفك تتشعب وتتشعب داخل عقلها الصغير، تتشعب وتورق وتثمر ثمارا صغيرة شهية بطعم الكعك المحلى والشوكولا. الشوكولا؟

كان وعي الفتاة مشتتا بين الرسوم الملونة الجميلة التي تراها والأفكار التي تتوالد بسرعة في عقلها، بين شجرة كبيرة تعتليها في الخارج وشجرة أمنيات سحرية تنمو وتتجذر وتثمر داخل رأسها، إلى أن طرحت الشجرة السحرية في الداخل طرحها على فرع الشجرة الحقيقية التي تجلس بين أحضانها في الخارج. فهناك... وفي آخر الفرع المجاور، قطعة من الشوكولا، تتدلى منه كثمرة، مربوطة في شريط حريري أحمر كهدية. اتسعت عينا الفتاة ورفرف قلبها الصغير داخل صدرها، خوفا وفرحا، فقد اهتدت اليوم لاكتشافها العظيم الذي سيغير مجرى حياتها بالكامل، إن الأشجار تتحدث!

كان الأمر مدهشا، ليس بالطريقة المريبة التي يمكنها أن تدهش أحد الكبار، وإنما بطريقة أخرى أكثر سحرا وغرائبية، مدهشا كقصص أَلِيس في بلاد العجائب وألف ليلة وليلة والجنيات ذوات الأجنحة الشفافة التي يتناثر منها التبر واللآلئ. مدهشا للدرجة التي تجعلها تقرر أن تفهم الثلاثة حروف وتحفظها عن ظهر قلب، فإن كانت الشجرة قررت الخروج عن صمتها الخشبي، بحديث ملون بلون الجنة ومطعم بطعم الشوكولا، فها هي تمتلئ شغفا وفضولا لتلقّي الهدية، واستقبال الرسالة الآتية من العالم الرائع الجديد، المتخفي بوشاح الصمت والسكون، وللمرة الأولى فكرت في الأمر بجدية، سوف تتعلم القراءة، وبأي وسيلة ممكنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دائما ما تكون أيام الرحلات الميدانية هي المفضلة لكل الطلبة، يوم دراسي كامل خارج أسوار المدرسة، خال من التتالي المرهق لبطاقات المعلومات المختلفة التي تنحشر الواحدة بعد الأخرى في أمخاخهم. لكن قلب نورسين كان يتواثب فرحا في تلك الأيام لسبب آخر. كانوا يتجولون بشكل منظم في أماكن هامة، مع عرض القليل من البطاقات لتعريفهم بالمعالم المختلفة للبلد. طريقة من طرق كثيرة متبعة بدقة للاهتمام بالثقافة وترسيخها في شخوص النشء الجديد، لإنتاج جيل مثقف وواع بالعالم المحيط به. فـ«العلم يرفع بيوتا لا عماد لها والجهل يهدم بيوت العز والكرم» كانت تلك هي الجملة المحفورة على البوابة الضخمة للمكتبة الأم، التي كانت من أهم المعالم الواجب زيارتها واستشعار نشوة الحضور فيها لأي مواطن مصري. صرح ضخم يحتل موقعا شديد التميز في منطقة الخدمات، يرمز للنهضة الثقافية والعلمية غير المسبوقة التي حدثت في عشرات الأعوام القليلة الفائتة. مصمم بأكثر الطرق ابتكارا على الإطلاق، حيث ترفع سقوفه على أعمدة مصنوعة من الكتب!

معنى رمزي يتجلى من خلال هذا التصميم العجيب. فالعلم هو ما ترتفع به البنى وتزدهر به الحضارات، ومن دونه سينهار كل شيء فوق رؤوس الجميع. منذ آلاف السنين كانت الكتب هي الوسيلة المثلى لتواصل العقول بعضها من بعض، سواء كانت ورقية أو إلكترونية ظهرت لتواكب التقدم التكنولوجي المتطرد. ولهذا ظلت هناك فجوة دائمة بين العلم والثقافة وبين جمهور الشعب باختلاف طبقاته ومستوياته الاجتماعية والثقافية. فرغم كل الجهود المبذولة ظلت هناك تلك الفئات التي لا تقرأ الكتب ولا تقربها، وهو أمر لا يتواءم بالطبع مع النهضة الشاملة الحادثة في العالم الآن. لذلك كانت البطاقات هي حل تلك المعضلة. كما كانت حلا نموذجيا لكل المعضلات الأخرى التي واجهتها البلاد. جُمعت كل الكتب... كل الكتب الموجودة على رفوف المكتبات العامة والخاصة والمنزلية. كل المخطوطات بكل أنواعها. حصدت كل ثمار العقول اليانعة بمنتهى الحرص والدقة، وكما تستخلص النحلة رحيق مئات الأزهار، وتنتج منه عسلا مصفى فيه خلاصة ما جمعت، تم تلخيص كل تلك الكتب، واستخلاص الخطوط العريضة فيها، من قبل مختصين تابعين للحكومة، وتم وضع تلك الخلاصات المركزة في بطاقات الثقافة، والبطاقات العلمية المتخصصة. وهكذا انتشرت الثمار في ربوع البلاد ليغتذى عليها الجميع بلا استثناءات من أي نوع. الكل يحصل على القدر نفسه من العلم. الكل يحفظ عن ظهر قلب خلاصات أمهات الكتب التي تحولت بجهد عظيم إلى بضعة سطور لا تتجاوز العشرة!

عشرة أسطر يمكن أن تغنيك عن قراءة كتاب لديكارت أو رواية لتولستوي، أو حتى كتاب سماوي مقدس. عشرة أسطر ستغنيك عن قراءة تفاصيل عشر سنوات عن رحلة أوديسيوس إلى إيثاكا، وستختصر لك رحلة دانتي الوعرة في الجحيم، أو تفاصيل ترحال نبي اللـه عيسى من بيت المقدس إلى أرض الكنانة. سطور قليلة ستمد عقلك بما يحتاج معرفته عن أينشتاين وداروِن وماركس والنبي محمد. ستضع لك خلاصات العلوم والسير الذاتية والحقب التاريخية في زجاجة صغيرة كروح العطر، لتسكبها على عقلك فيكتسب رائحة المثقفين.

أما الكتب، فكما بنيت مادة البطاقات على ما بها من فكر بالمعنى المجازي، فقد بني هذا الصرح الهائل عليها بالمعنى الحرفي. مزيج فريد بين الكتل الخرسانية وكتل الكتب القديمة الملتصق بعضها ببعض، يضفي رهبة وروعة لا توصف على هذا المكان المقدس. اخطُ خطوتين للداخل، فقط خطوتين، لتجد نفسك محاطا بعقول ملايين البشر عبر آلاف السنين. عقول تراص بعضها فوق بعض لتقيم هذا البناء العجيب كمعبد أثيني قديم، أو كمقبرة، أو كمعبد بولندي مصنوع من الجماجم ورفات الموتى!

أصبح المكان مزارا يتردد عليه المئات يوميا، وخصوصا من التلاميذ الذين ما زالو في طور التنشئة. حتى يروا بأعينهم هذا الكنز الثمين الذي استخرجت من معينه بطاقات دراساتهم.

انتظم الطلبة والطالبات في صفين طويلين أمام بوابة المكتبة، حولهم يطوف عدد من الأساتذة ومشرفي المكان لتنظيم الزيارة وتحقيق الاستفادة القصوى للحضور. في الصف الأول كانت نورسين، وفي مجموعة الأساتذة كان أستاذها، معلم الصف الثالث الثانوي، وما بين فتاة الصف وأستاذ الصف، كان كل شيء كخلفية باهتة يتبدى عليها حبيبان يبذل كل منهما قصارى جهده حتى يلجم نظره عن متابعة الآخر. كان الأستاذ يذرع الأرض جيئة وذهابا منتظرا انتهاء إجراءات الدخول، مرة، مرتين، ثلاثا. كانت الفتاة تعد الدورات التي يطوفها حولهم، إلى أن توقف... بجوارها تماما. لم يلف رأسه ليحدق بوجهها ولم ترفع رأسها للأعلى حتى تتفرس في ملامحه التي اشتاقتها كثيرا. اكتفى كلاهما بشهيق طويل تتخلل فيه رائحة عطر الآخر صدره. فيطفئ ما به من شوق تجاهه لحظة واحدة، ليعود بعدها أقوى وأعصى على الاحتمال. هي لم تحب سواه طوال عمرها القصير ذي الستة عشر عاما، وهو أخبرها كذلك بأن قلبه لم يدق لسواها، هكذا أخبرتها البطاقة الورقية التي انطبعت على خلفيتها صورة باهتة لعشيقين يتبادلان القبل. وكذلك السوار الذهبي الذي لا تخلعه أبدا من معصمها والذي أهداه لها بمناسبة يوم ميلادها منذ بضعة شهور، سوار رفيع مصنوع من سلسلة تتوسطها علامة المالانهاية رمزا على أبدية حبهما الكبير. لقد كان لها بمثابة خاتم الزواج الذي يربط مصيرين في بداية طريق واحد، ليملك منها بعدها الروح والجسد والفكر والمشاعر. ولتظل منتظرة أن يزداد عمرها بضعة سنوات فيحدث اللـه بعد ذلك أمرا في قصة حب تزداد اشتعالا يوما بعد يوم.

كان يوما جميلا لنورسين، رحلة ميدانية مشوقة يترأسها حبيبها الأثير، لم تكن تتمنى أكثر، ورغم ذلك، كان هناك أكثر. تقاطعت زيارتهم مع زيارة شخص لم يخطر لهم على بال أن يمروا بجوار موكبه. ناتالي فروست، سيدة المدينة ورئيسة مركز البطاقات الرئيسي الذي يمد البلاد بأكملها بالبطاقات بكل أشكالها. وقفت نورسين مشدوهة أمام المرأة التي لم ترها سوى متصدرة أغلفة مجلات البطاقات، وعلى اللافتات العملاقة وسط المدينة، مصحوبة بعبارة شخصية العام لأكثر من ثلاثة أعوام متتالية. كانت تتفرس فيها بإعجاب لا حدود له، وبفضول ينبت في عقلها الكثير من التساؤلات، ترى كم عمرها؟ هل هي عجوز بشعر أبيض كالثلج؟ لكن وجهها الوسيم وعينيها الصافيتين وقامتها الرياضية الممشوقة لا توحي بالتقدم في السن. كيف أمكنها تحقيق كل هذا النجاح؟ وما هو شكل الحياة الشخصية لامرأة بهذا التحقق؟ ترى، ماذا

يجري داخل مراكز البطاقات؟ وما هي البطاقات التي يستخدمها صانعو البطاقات؟!

كان السؤال الأخير هو الأكثر الحاحا على الإطلاق، والذي طالما تردد في عقلها دون توقف باعثا الكثير من التساؤلات الأخرى والأماني الطموحة. أمانٍ مجنحة طارت بها في سماء بعيدة عندما قرأت البطاقة التي رفعها أحد المرافقين للسيدة الساحرة...

«سوف يتم اختيار بعض الطلبة المتفوقين للتدرب في مركز البطاقات الرئيسي، تحت الإشراف المباشر للسيدة ناتالي فروست»

كادت تقفز فرحا، لكن أحدهم كان يراقبها باهتمام منعها من التصرف ببلاهة، لقد كانت السيدة فروست!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسلمت ليلى في الشهور الماضية العدد الأقصى من الإنذارات. إنذارات للشغب، إنذارات لعدم الانتظام في الحضور، ولعدم القيام بالواجبات المدرسية، والأسوأ إنذارات لعدم وصولها للمستوى المطلوب المناسب لصفها. وكان هذا كفيل بإغضاب المدير وجعله يتخذ قرارا تأخر في اتخاذه لفترة طويلة. الفصل النهائي لاستنفاد عدد الإنذارات المحدد. وقفت الفتاتان أمام المدير في مكتبه، تحاولان التظاهر بالوقار قدر استطاعتهما. أمسكت نورسين بكف الصغيرة الساكن كعصفور وراحت تربت عليه. فللمرة الأولى تلاحظ حزن الفتاة لاحتمال فصلها. لقد صارت ليلى ولسبب لا تعرفة ترغب في استكمال دراستها. ضبط المدير جهازه اللوحي على بطاقة «الفصل النهائي لاستنفاد عدد الإنذارات»

ففعلت نورسين مثله وضبطت جهازها «إنها فتاة جيدة وترغب في فرصة أخيرة لإثبات ذلك»

«القرار نهائي ولا رجعة فيه»

«كل إنسان يستحق أن يمنح الفرص لإثبات جدارته»

«القرار نهائي ولا رجعة فيه»

يبدو أن القرار نهائي بالفعل. ماذا يمكن أن تقول بعد؟ الفتاة تملك جسد قرد رشيق، ربما يمكنها إثبات جدارتها في إحدى الرياضات فيشفع لها ذلك ويعوض فشلها الذريع في صفها.

أخذت تعبث بجهازها اللوحي ثم عرضته على بطاقة «الجمباز رياضة الأقوياء، أنا أحب لعب الجمباز»

فهم المدير ما ترمي إليه. قام من جلسته وتوجه نحو ملصق على الحائط المقابل. كان الملصق لتشجيع الطلبة على الالتحاق بالبرامج الرياضية المختلفة. وبه شروط الاشتراك لكل رياضة. قرأ الشروط التي كانت تقتضي طولا معينا للقبول بالنسبة لكل سن. سحب الصغيرة من يدها وألصقها بالحائط المرسوم عليه مدرج لقياس الطول. فكانت أطول من المطلوب بخمسة سنتيمترات، فهز رأسه علامة على الرفض. لم تيأس نورسين. عبثت بجهازها من جديد ثم عرضته على بطاقة «أنا أحب رياضة الجري، إنها تقوي القلب والعضلات» فأشار بسرعة لأحد الشروط التي تقتضي سن تسع سنوات لبدء التدريب في حين كانت الفتاة في السابعة فقط. استمرت نورسين في المحاولة، وعرض بطاقات الرياضات المختلفة، واستمر هو في الرفض لعدم التناسب مع المعايير المحددة لكل رياضة. وللمرة الأولى كانت الصغيرة منتبهة، تتابع البطاقات رغم عدم فهمها للمكتوب فيها. وتراقب بلهفة كل إيماءة على وجه المدير، تحاول ترجمتها إما لقبول وإما لرفض. استنفدت نورسين كل المحاولات، فعاد هو إلى مقعده وبدأ في قراءة بعض البطاقات المطبوعة على المكتب في إشارة لوجوب انصرافهما. ماذا يمكن أن تفعل الآن؟

اتجهت نورسين نحوه راسمة على وجهها هذا التعبير الذي تعودت أن تنال به ما تريد، أزاحت ذراعه وجلست على فخذية، ثم مدت يدها نحو نظارته الطبية وانتزعتها من على وجهه. لم يمانع هو، فقط نظر لها بترقب ليرى ماذا يمكن أن تفعل بعد ذلك.

ضبطت الجهاز ووضعته قبالة عينيه «أبي، أنت أكثر شخص أحبه في حياتي»

طوال عمره يعرف بالانضباط الشديد وبعدم المحاباة لابنتيه والتعامل معهما بشكل خاص. لكن يبدو أنهما مصرتان اليوم على انتزاع هذا الامتياز انتزاعا. كلتاهما مصممة مهتمة، لدرجة يمكن أن تكون شفيعة لهما في هذا الموقف. فالصغيرة التي يملأ عينيها الرجاء يمكن أن تبدأ بداية جديدة. ستكون معجزة، ولكن لم لا؟ فلتكن آخر فرصة. طبع قبلة على وجنة الفتاة ثم دفعها برفق لتنهض من فوق فخذيه. فكرت نورسين هل يعني هذا الموافقة؟ بالطبع هي كذلك. قفزت فرحا لانتصار صغير حققته توا. وفهمت الصغيرة معنى فرحة أختها فقفزت بدورها من السعادة. كان منظرا غريبا لم يشاهدة الأب من قبل. فليلى لم تكن قط مهتمة بالمدرسة بالقدر الذي يرفع قدميها من فوق الأرض إذا علمت بخبر بقائها فيها. هناك أمر غريب يحدث، ولا يهم ما هو، المهم أنها بداية محتملة لانضباط القرد الصغير في صفوف الآدميين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الشهور التالية، حدثت طفرة لم يتوقع حدوثها أحد. لقد انتظمت الصغيرة في المدرسة، وبذلت الكثير من الجهد في دروس القراءة على وجه التحديد. أقامت علاقة جديدة كليا مع الحروف التي كانت تتلوى كالثعابين على صفحات الكتب. روضتها وأبرمت معها معاهدة سلام، تستلزم الاحترام المتبادل من الطرفين وإقامة جسور من الود والصداقة. كان الأمر شاقا بالتأكيد، لكنها كانت مشقة لذيذة، بطعم الشوكولا وبألوان الجنة وبرائحة العود. ولأن الرسائل ينبغي أن تقرأ ويرد عليها برسائل جديدة، كان ينبغي عليها أن تبذل قصارى جهدها في ترويض ذهنها للتركيز والتلقي الفعال لتلك اللغة الجديدة التي أضحت بوابة لعالم سحري عجيب. وبالفعل، في نهاية العام، كانت ليلى تتقن قراءة الكلمات والجمل القصيرة، واكتسبت مهارة التهجئة للكلمات الجديدة ببطء نسبي وبمهارة شديدة. «قرد» كانت الكلمة الأولى التي فكت شفرتها، وتوالت بعدها الكلمات والرسائل على مدار الشهور والأعوام التالية. مر العام بعد الآخر، وهي تكبر في أحضان الشجرة. تروي عليها القصص والأساطير والأشعار. تعلمها وتهذبها وتفتح أمامها الأبواب، كل الأبواب، حتى الممنوع منها. كان القانون يمنع النسخ وقراءة أي شيء عدا البطاقات المختومة بختم مركز البطاقات الرئيسي، ولذلك ظلت الشجرة سرها الكبير، تقابلها في كنف الليل المظلم، وتخفي رسائلها في صناديق مغلقة تحت فراشها وفي خزانة ملابسها، تفوح منها رائحة العود فتداعب أنفها الصغير في أثناء نومها وتتسرب إلى أحلامها لتعطرها.

«صغيرتي ليلى...

اليوم تكملين عامك العاشر، وفي يوم الميلاد ينبغي تقديم هدية، ولسوف أهديكِ اليوم كتابا أهداه قبلي كاتب عظيم، لابنة قلبه الصغيرة ذات السبعة أعوام في يوم ميلادها، كتب فيه قصة لأميرة صغيرة حائرة ترك لها أبوها الملك بعد موته وصية، مفادها أنها لن تصير ملكة إلا إذا حملت الشمس إلى القصر. لتبدأ الفتاة في ملاحقة الشمس، في أعالي الجبال، وعندما تفشل تعود لتبكي في غرفتها، فتجد رسالة كتب فيها (لن تستطيعي أن تجدي الشمس في غرفة مغلقة!) فيشتعل ذهنها من جديد وتبحث عن كاتب الرسالة، الشيخ حامل القنديل، لتستفتيه فيما كتب. هذا كتاب صغير، كتبه ورسمه بطل اسمه غسان كنفاني، وقرأته طفلة اسمها لميس، وبعدها بأكثر من عشرة أعوام، كانا معا عندما فجر العدو سيارته فماتا معا، وتلقفتهما أيادي السماء الرحيمة معا، لتحط بهما في الفردوس الأعلى. ولهذا... فهو كتاب خطه شهيد، وكتب الشهداء رسائل، تكتب بالدم وتقرأ بالروح، لتعود بعد حين وتكتب بدماء جديدة. اقرأي الكتاب بروحك يا صغيرة، وتذكري دوما (إنك لن تستطيعي أن تجدي الشمس في غرفة مغلقة!)»

«عزيزتي ليلى...

أسعدني أنك حفرتِ كلمة ما للمرة الأولى على لحائي الخشن، وأعلم ما بذلتِه من جهد لتعلمها وما قمتِ به من مخاطرة لاتخاذك القرار أن تكتبي في بلادنا، حيث تجرم الكتابة والقراءة كما يجرم القتل والسرقة. شجرة التين البنغالي، هكذا كتبتِ، وأظن أني فهمت مقصدك. أغلب الظن أنك درستِ في صف العلوم دروسا عن الشجر وأنواعه، وعرفتِ أن صديقتك الشجرة من نوع أشجار التين البنغالي العملاق، ربما أخبروكِ أن الشجر هو أحد أشكال الحياة النباتية، كائن غير عاقل لا يملك أعضاء تمكنه من التفكير والإحساس... والكتابة. وأنا أعلم جيدا ما يثيره فيك هذا الكلام من حيرة، ولكن، من قال إن الحيرة شيء ينبغي أن نتخلص منه؟ اعلمي أن الكلمات هي كائنات مستقلة بذاتها، ما إن تترك قائلها حتى تحلق بعيدا عنه لتمرح في فضائات أخرى، فلتستقبليها في فضاء عقلك ولا تنشغلي من أين جاءت، وكيف خلقت. فقط افتحي لها الأبواب، وانثري لها الطعام على الأعتاب، تعرفي عليها واهمسي في آذانها، ثم أرهفي السمع لها حينما تهمس في آذانك. زقزقي معها وحلقي معها وبها، ولا تقنعي بالبقاء في أرض واحدة. ولكي تفعلي هذا، هناك طريقة ما، أظن أنك مستعدة لتعلمها. وسوف أخبرك عنها في الرسالة المقبلة»

«ليلى العزيزة...

أظن أن الوقت قد حان لتكتبي لي ما يجول بخاطرك. وبالطبع لست في حاجة لتذكيرك بمدى خطورة الأمر، أنت تعلمين أن مجرد حيازة الورق الأبيض يعد جريمة، ولذلك سوف أهديكِ أوراقا بيضاء، وأعلمك كيف تصنعين الألوان لتكتبي وترسمي ما تريدين. يمكنك خلط الماء بالنشا وتقليبهما على النار ثم إضافة ألوان الطعام على الخليط، وستحصلين على عجين ملون بأكثر من لون، حاولي إحضار ريش نعام من الحديقة، واغمسي أسفل الريشة بعجينة اللون واكتبي بها، وإن تعذر حصولك عليها، يمكنك استخدام ريشة طلاء الأظفار، ستجدين الكثير منها في كل مكان، يمكنك أيضا استخدام طلاء الأظفار نفسه للكتابة، وطلاء الجدران، ولكن احذري أن يلتفت إليكِ أحد ويلاحظ اهتمامك بأنواع الطلاء، ففي ذلك خطر شديد عليكِ. ولهذا من الأفضل أن تصنعي ألوانك بنفسك في المنزل وسيكون هذا أسهل كثيرا من الحفر على لحاء الشجر إن أردتِ التعبير عن فكرة ما تشغلك أو شعور ما يجول في قلبك الصغير. تلك خطوة أولى، إن أتقنتِها سوف أخبرك عن طريقة صناعة أقلام صغيرة ملونة باستخدام الشمع الخام وألوان الطعام. حاولي ولا تيأسي... وسأنتظر منك رسالة، لتخبريني فيها برأيك في الأشعار التي أهديتها لك سابقا»

«صغيرتي ليلى...

تسعدني كثيرا الرسائل التي تكتبينها، ورغم قصرها فهي جميلة. فالبذور صغيرة متناهية الصغر، إلا أنها تحمل في ذاك الصغر روحا كامنة، ما إن تمسها المياة حتى تتفتق عن كيان هائل ومدهش، يحمل في أحضانه الزهر والثمر والخير الوفير. لا تتوقفي عن الكتابة أبدا، ولا تستسلمي لسطوة البطاقات على عقلك. سأقص عليكِ اليوم حكاية. أسطورة من أساطير اليونان القديمة، بلد الحكماء والمتنورين. كان هناك حدادا اسمه بروكروست وكان يقطع الطرق ويدعو الغرباء للمبيت في منزله والنوم على سريره، لكنه لم يكن مثل بقية الأسرة. فقد كان بروكروست يجبر الزائر سيئ الحظ على أن يتلاءم قياسه مع قياس السرير، فإن كان أقصر منه، يشد أطرافه حتى تتمزق مفاصله ويتفسخ جسده. وإن كان أطول، يبتر أطرافه بلا رحمة. المهم أن يصير جسد الزائر في النهاية بنفس طول السرير. والآن انظري حولك، وابحثي عن بروكروست، واحذري أن تسقطي في غفلة منك على سريره، فالكل فعل دون أن يدري!»

«عزيزتي ليلى...

هل أخبرتك من قبل عن الموسيقى؟ ذلك السحر القديم الذي هامت روحه في الآفاق تبحث عمن يسمعه لتطيره معها في سماوات بعيدة وبديعة. صوت ليس كالأصوات، أقرب ما يكون للشعر، كأنه قصائد موزونة بلا كلمات ولا حروف. تنفذ للروح وتتفشى فيه كالعطر. هل أعجبتكِ القصائد يا صغيرة؟ لمَ لا تحاولين أن تكتبي لي قصيدة؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك...

في جنتي السرية

سوف أخترع ألف رقصة

وأكتب ألف قصيدة

وألف برقية اعتذار

هناك...

حيث يكبر الكهول فيصيرون أطفالا

بأفئدة شاسعة، وعقول ملونة

وأجنحة صغيرة

حيث الابتسامات حقيقية

جذورها في الأرض
وفروعها في الهواء
هناك...
حيث النوافذ الزرقاء
تطل على ألف طفل سعيد
حيث يملك كل شخص
زورقا في الماء
وسلما للسماء
وشجرة سحرية
تطرح آذانا مصغية
وقلوبا طازجة
وأعينا خضراء
هناك فقط
سوف أغمض عينيّ
وأرقص
ثم أطفو فوق سطح العالم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مكاتب كثيرة، بعضها معروف وبعضها سري، أروقة طويلة تربط بينها وبين قاعات الاجتماعات الشاسعة، واستديوهات التصوير باهرة الإضاءة ذات الألف شكل. وأسفل كل شيء، طوابق تحتية مشددة الحراسة، بها مخازن تحتوي خامات تصنيع البطاقات ومطبعة عملاقة يتم فيها إخراج البطاقات الورقية بصورتها النهائية. وبضعة مكاتب قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، يعمل فيها قلة قليلة مختارة من المديرين على أجهزة الإدخال. حيث يمكنهم كتابة الجمل على البطاقات الورقية والإلكترونية، تحت الإشراف المباشر من السيدة فروست. لم يكن أحد يعلم شيئا عن محتوى الطوابق التحتية غير تلك القلة القليلة، ولا عن الآلية المتبعة لإصدار البطاقات بشكلها النهائي. ولم تكن مراكز البطاقات الفرعية المنتشرة في أرجاء البلاد تحتوي مثل تلك الطوابق. فقط كانت تحتوي على استديوهات التصوير وبعض المكاتب الإدارية العادية،

وقاعات عرض البطاقات الورقية التي تحصل عليها بصورتها النهائية من المركز الرئيسي في وسط القاهرة، والبطاقات الإلكترونية يتم تحميلها على الأجهزة اللوحية مباشرة من الموقع الرسمي له، مع إمكانية ولوج الموقع إلى الأجهزة اللوحية وحذف البطاقات منتهية الصلاحية مباشرة، دون الحاجة لإذن من أصحابها.

«سأنتخب سيد فاروق نائبا عن دائرة وسط القاهرة لأنه رجل صالح»

كانت تلك هي البطاقة التي تعمل عليها نورسين الآن. يجب أن يتم الأمر على أكمل وجه حتى ترضي ناتالي التي صارت لها بمثابة الأم والقدوة والهدف. تم ترتيب الاستديو بحيث يقف شاب وفتاة خلف صندوق انتخاب كبير، يتبادلان نظرة ذات معنى، يملأها الأمل والرجاء، في أثناء وضعهما البطاقات الانتخابية بداخل الصندوق. وفي الخلفية يرفرف علم مصر! كانت المحاولة الأولى لالتقاط الصورة جيدة، لكن نورسين لم تكن ترضى بالجيد بل بالممتاز، ولذلك استمرت المحاولات التي أرهقت الجميع حتى نجحت المحاولة الثالثة عشرة. لطالما بعث النجاح في قلبها نشوة غامضة، ذاك الذي تستشعره حينما تتم مهامها على أكمل وجه، وحينما تلمح نظرة الرضى تلوح من عيني ناتالي، وفي النهاية، تشعر بالإشباع التام، حينما تحقق البطاقة ما صنعت لأجله. هي لا تعرف شيئا عن ذاك المدعو سيد فاروق. لكن الأمر سيكون رائعا عندما يفوز في انتخابات البرلمان. لا لأنه يستحق. بل لأن نجاحه يعني نجاحها هي.

لقد علمتها ناتالي الكثير، فأعوام الجامعة الأربعة لم تضف لها بقدر ما أضافته السيدة التي تبعتها كظلها منذ اليوم الأول للقائهما بالمكتبة. شيء ما جمعهما في علاقة معقدة تتشابك فيها الصفات والمشاعر، مديرة، متدربة، أم، ابنة. احتلت كل منهما في قلب الأخرى مكانا شاسعا، وبالنسبة لنورسين لم يزاحمها في ذاك المكان سوى أستاذها الذي استعمرها منذ سنوات خمس، فاستسلمت له راضية. تغلبت علاقتهما على مرور الأعوام، وعلى المسافات الجديدة التي فرضها عليهما التخرج في المدرسة الثانوية ودخول الجامعة، ثم التخرج في الجامعة والعمل في مركز البطاقات، لم تنزع طوال هذا الوقت سواره من معصمها، ولا حبه من قلبها، رغم استحالة وجود نهاية سعيدة للحكاية. فهو متزوج، وله من الأطفال ثلاثة. لكن كل هذا لا يهم، فهي حبيبته الوحيدة ونور حياته، هكذا قالت البطاقة!

البطاقات... ذاك اللغز الذي لا يكف عن استثارة فضولها أبدا، ما زال السؤال القديم ذاته يطل من بين كل ما تراه ولا إجابة. «ما هي البطاقات التي يستخدمها صانعو البطاقات؟!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن منزل ناتالي فروست من بين المنازل الموجودة في المنطقة السكنية. كان بيتا أشبه بالقلعة في مكان ناءٍ من صحراء المعادي، تحيطه أسوار عالية، لا تفتح بوابتها الحديدية لأي من كان. «فتاة قوية» هكذا كان يدعوها الجميع منذ مطلع شبابها. ربما كانت قوية أكثر مما ينبغي لها أن تكون. قوة لا يمكن أن توضع في محل اختبار من رجل، ولا يجوز أن تمتحن في علاقة. منذ أكثر من ثلاثين عاما، في أمريكا، كانت شابة جميلة ذات شعر أشقر قصير وجسد شديد النحول كصبي في الحادية عشر من العمر، فارعة الطول، ذات نظرات حادة وأنف دقيق وشفاه لا تكاد تُرى. تتأمل نفسها في المرايا فلا ترى ملامح الأنوثة التي تراها في كل النساء. ولكن من يهتم؟ فلتذهب النساء ورجالهن إلى الجحيم. هكذا حاولت دوما أن تقنع نفسها. صبت كل اهتمامها في العمل، وصارت في تقدم باهر مضطرد، طوربيد موجه لا يبطئ ولا يقف إلا إذا أصاب هدفه. كانت محط إعجاب الجميع كطالبة ثم كموظفة ثم كمديرة. لكنها لم تلفت أبدا نظر رجل كامرأة. ظلت تلك الغصة في حلقها، تحاول ابتلاعها بمرارة فلا تستطيع، فقررت بصقها في وجه العالم. كانت تستميت في عملها، وفي نشاطها الرياضي. صار جسدها النحيل مطعما بعضلات صلبة قوية زادت من مظهرها الذكوري. بالغت في الأمر حتى كادت تطمس آخر أثر لأنوثتها الضامرة من الأساس. لم يلحظ أحد، ولم يهتم. فشخصيتها القيادية الطاغية في العمل كانت كل ما يفكر فيه الجميع. وبعد فترات الدوام، كانت تعود لمنزلها، تخلع ملابسها، وتتأمل جسدها العجيب في المرآة. جربت أن تجرحه بسكين، نزفت دماء غزيرة على فراشها الخالي، ضمدت جراحها بنفسها وأكملت طريقها الممهد نحو القمة. وبعد عمل وعناء متواصلين لأعوام طويلة، حصلت على منصب مدير مركز البطاقات الرئيسي في القاهرة. أعجبتها فكرة أن تترك كل شيء وراءها وتسلك طريقا جديدا في بلد جديد. وصلت مصر محملة بأحلام لا حدود لها، وجروحها الكثيرة متخفية خلف البذلات الرسمية السوداء، هذا الحد الفاصل بين القوة والضعف، والثقة في النفس وكراهيتها. أحبت الحياة في مصر وقررت أن تكمل فيها حياتها، بعيدا عن ذكريات سيئة ارتبطت بموطنها الأصلي، وبوصمة عار ألحقتها بها أختها التوأم الوحيدة. سوف تصنع ها هنا أسطورتها الكبيرة، وتشيد عالمها الخاص لبنة لبنة. ستكون القاهرة مستعمرة أحلامها ومملكتها السعيدة.

ومر عام ثم اثنان، واصلت فيهما نجاحاتها غير المنقطعة، صارت القاهرة بالفعل مملكتها، لكنها لم تكن سعيدة. شيء ما ناقص ولا يكتمل بنجاحها المهني. فجوة ما في قلبها الصلب تزداد اتساعا وإيلاما. إنها وحيدة، يحيطها المئات من الموظفين وزملاء العمل، لكنهم لا يغنون شيئا لملء تلك الفجوة. عادت جراحها القديمة لتنفتح، ينز منها الحزن والحسرة ليلطخ بذلة العمل

الرسمية ببقع لا تزول. رغم كل شيء كانت بحاجة للحب! غريزة أولية تطفو على سطح نفسها وتعكر صفوه، الأمومة. لكن كيف؟ هل تضحي بنفسها وترمي بها بين أحضان رجل لتحصل على مبتغاها. تبدأ علاقة عقيمة لن تخرج منها سوى خاسرة فقط لكي تصير أُمّا. قلبها الصلد لن يرق أبدا لرجل، ولن يرق له رجل في المقابل. لا لا يمكن أن تتزوج. ستستنزفها علاقة فاشلة وتفتش أسرارها، ستهتك ستر جسدها غير محدد الهوية، وتعبث بقلبها أيما عبث. تناست الأمر وأكملت طريقها، أو هكذا حاولت. إلى أن اعترفت أمام نفسها بالفشل الذريع. يجب أن تحصل على الحب، على الطفل، لا مفر من ذلك. يجب أن تنجب قلبا غضا نضرا، تمتلكه وتتلقى منه حبا غير مشروط، تبذر فيه بذورها فيكبر ويثمر ثمرا طازجا، تتغذى عليه وتشبع من بعد جوع. لكنها لن تسمح لرجل بإنزالها من برجها العاجي الذي صنعته بدمائها وأعصابها وساعات عمرها النازفة. ولهذا، قررت أن تختار رجلا من العامة، تنجب منه طفلها ثم تتخلص منه وقتما تشاء. شخص خارج دائرة القوة والنفوذ التي تقف هي في مركزها. ستنتقيه من بين البسطاء كما تنتقي التحف في البازارات. ينبغي أن يكون صحيح الجسد وقويا وجميلا، ليكون طفلها على شاكلته.

ظلت الفكرة قابعة في عقلها تنتظر اللحظة المناسبة للتحقق. ويوما ما في أثناء زيارتها لمزرعة أحد الأصدقاء، لاحظت شابا يعمل في فلاحة الأرض، رشيق الجسد، وسيم الوجه. صلب الكفين والملامح، ورهيف القلب. كان يعمل كالآلة بلا انقطاع، وفي أوقات راحته، يصاحب الخيل ويدربهم، يقترب من آذانهم كأنه يهمس لها بسر ما، يحتضن الخراف قبيل الذبح ويتمتم في آذانها حتى تهدأ، ترى هل تسمع الحيوانات؟

أطالت عمدا فترة زيارتها، راحت تتبعه من ركن لآخر في المزرعة. سألت عنه رئيس الفلاحين فأخبرها بأنه أشد العاملين قوة وأوفرهم صحة وأحسنهم خلقا. كان تحفة مصرية ثمينة تصلح لتزيين ركن ما بمنزلها. لحقته حتى وصلا لإسطبل الخيول. ومن دون مقدمات، عرضت له بطاقة «هل تتزوجني؟» نظر للجهاز اللوحي بدهشة وانفجر ضاحكا وأكمل عمله. كادت تحترق غلا. شدته من ياقة قميصة وقبلته بعنف، أوشكت أن تتقيأ بعدها، لكنها تمالكت نفسها وأعادت عرض ذات البطاقة «هل تتزوجني؟» حينها فقط فهم أنها لا تمزح، وأنها جادة في طلبها العجيب غير المنطقي، لكنه طلب لا يمكن لشخص مثله رفضه. تمت الزيجة وسط ذهول الجميع، لم يفهم أحد كيف يمكن لامرأة مثلها أن تقترن برجل مثله، لكن الصمت لا ينفك يطمر بين طياته التساؤلات والاستنكار.

صارا معا في بيت واحد. شخصان لا يجمع بينهما أي شيء على الإطلاق يفصل بينهما وبين العالم بأكمله باب موصد. حاولت أن تؤدي دور الزوجة، وجاءت تأديتها متكلفة وركيكة، كانت المرأة ذات البذلة السوداء تجلس بداخلها وتصرخ. تعنفها وتخمش أركان روحها، «هذة ليست أنتِ»، «تذكري هدفك من كل هذا ولا تضيعيه» وظلت متذكرة الهدف، تقدم له القرابين قطعا من روحها وجسدها حتى يتحقق. ومرت أيام صعبة، حاولت فيها الحفاظ على اتزانها بين زحام العمل والتمثيلية السخيفة الدائرة في المنزل. إلا أن نوافذ قلبها المغلقة بإحكام فتحت ببطء، وتسللت إليه نسمات حانية ربتت عليه بعطف ومحبة، أصابها الذعر في بادئ الأمر. لماذا صارت تنتظر انتهاء الدوام لتعود للمنزل؟ لماذا تشعر بأنها لا تمثل بين أحضانه؟ هل تقمصها الدور لدرجة أنستها نفسها؟ هل استطاع بحنانه غير المحدود أن يروض قلبها الجموح كما يروض خيوله؟ ما زالت تذكر المرة الأولى التي ابتسمت له فيها ابتسامة حقيقية. دونته في دفتر مذكراتها مصحوبا بعلامة الإنذار. أجل لقد تغيرت. صارت تسكن بين ذراعيه وتتمنى أن تطول لحظاتهما معا. تمنت لو أن حملها يتأخر قليلا حتى يظل موجودا. وفي لحظة ما، ليس كمثلها شيء، تمنت لو أنها لا تحمل أبدا. ها هو الحب غير المشروط. ها هو الدفء الذي كانت تنشده طوال حياتها دون أن تعترف بذلك حتى لنفسها. لكن للقدر حسابات أخرى. حدث الحمل، وصارت النهاية حتمية. هل تتخلص من الطفل؟ لا لم تستطع. كانت الأسئلة تجلدها وتدميها، غرقت في الحيرة حتى كادت تختنق. وفي النهاية قررت أن تعود لمسار مرسوم وحتمي. ذكرت نفسها بكل مشاعرها القديمة، كراهيتها للرجال، نفورها من العلاقات، احتقارها للاستنزاف الذي تحدثه أي علاقه لكلا طرفيها وامتصاصها لروحيهما. قررت أن تحتفظ بالولد. ولأن الولد والأب لا ينبغي لهما أن يجتمعا وإلا أفشِي السر الكبير، تخلصت من زوجها. لم يعرف أيا من كان أين اختفى ولم يهتم أحد لذلك، كأنه لم يكن، صار نسيا منسيا.

لم يمر يوم بعد ذلك إلا وتساءلت، هل كان خيارها صحيحا؟ وعندما صار الجنين طفلا وصار الطفل شابا، لم يمر عليها يوم لم تحدث نفسها فيه «ليتني لم أفعل هذا» راحت تصفع الفتاة القوية التي خارت قوتها لمرة واحدة. الذكية التي خانها ذكاؤها لمرة واحدة. تصفع الفتاة التي صارت امرأة على وجهها بقوة وتصيح بها بشراسة «الأجل هذا تخليتِ عنه؟» فالفتى لم يكن عوضا عن أبيه. كان غريبا مقتنعا بغرابته، وحيدا منفصلا بواقعه عن الواقع الذي أرادت أمه زرعه فيه، معتزلا للجميع مصاحبا للكلاب أينما ذهب. يتحسسها بحنو ويهمس في آذانها فتهدأ بعد نباح طويل. ترى هل تسمع الكلاب؟

لم يكن أهلا لأمومتها، ولم يكن أهلا لحمل السر الذي اختارت له حمله رغما عنه. لم يكن لها سوى خيبة التصقت بقلبها وبذاكرتها طول العمر. ربما كانت تلك الخيبة سببا في الابتسامة التي تشرق على وجهها كلما رأت نورسين، «فتاة قوية» هكذا كانت تخبرها، وهكذا كانت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحيدة في المنزل الكبير، بعد أن ذهبت كلتا الفتاتين وأبوهما. ولم تجد هي مكانا للذهاب إليه. فالحديقة تحولت بالفعل لمعرض للحيوانات المحنطة. ولم يعد هناك مكان للوحدة البيطرية بكل من يعمل فيها. فقط وحدة للتحنيط عرض عليها العمل فيها ورفضت. لتقضي أيامها تباعا وحيدة في منزلها مع بعض الحيوانات التي انتزعتها انتزاعا من مصير القتل، واحتفظت بها في حديقة المنزل وقبوه. لكن الشكاوى تنهال عليها من الجيران الخائفين. وشركاء المنزل لا يخفون تذمرهم من الوضع الهزلي بعيشهم مع الحيوانات. ليلى فقط هي من كانت تبذل كل ما في وسعها للعناية بها. ليشاء القدر وتكون سببا للتقارب الأول بين الفتاة وأمها وقضائهما بعض الوقت معا، تنظفان القبو وتعيدان ترتيبه ليتناسب مع المقيمين الجدد. تقلمان أشجار الحديقة وتقسمانها ليكون لكل قفص مكانه المناسب بين تشكيلات الزهور والأعشاب. أوقات مرهقة، استمتعت فيها ليلى بصحبة أمها وبصحبة أصدقائها القدامى. إلا أن الأم لم تجد فيها سوى المزيد من الأعباء والمزيد من الكآبة. فالوضع لن يستمر طويلا. وآجلا أو عاجلا ستضطر لإعدام الحيوانات أو السماح بإعدامها. ناهيك بالانهيار الوظيفي الذي تعرضت له، والذي عصف بأعوام طويلة من العمل الجاد. هل تبدأ العمل في مكان آخر؟ لم تستسغ الفكرة، ولم تجد في نفسها العزم والمثابرة للبحث عن وظيفة جديدة. فمزاجها متقلب باستمرار، وجرعة العقاقير النفسية التي تتعاطاها لم تعد كافية، صارت تتعاطى عقاقير جديدة أشد تأثيرا. تنام لفترات أطول وتستيقظ لتباشر العمل في المنزل لتنام من جديد.

وفي هذا الصباح كانت وحيدة في المنزل تحاول إصلاح قفل سلسلة القرد التي تمنعه من الهروب. ولم يكن هو معتادا على القيود ولا متقبلا لها. ربما كان جائعا أو غاضبا أو ربما كان يلعب، لم تدر. لطمها على وجهها وخدشت أظفاره وجنتها، فألقته بعيدا دون أن تدرك أن رقبته عارية من القيد. قفز على الشجرة الكبيرة ومنها إلى النافذة المفتوحة لغرفة ليلى. وبعد ثوان حاولت تنحية الألم جانبا في ركن من وعيها والتركيز فيما يحدث. عليها أن تعثر على القرد وبسرعة. دلفت للمنزل ركضا، وارتقت الدرج بسرعة. اقتحمت غرفة ليلى ونظرت حولها، لكنها لم تجد سوى الفوضى هنا وهناك. ربما هو مختبئ بين أكوام الملابس. بحثت من جديد ولم تجد. هي تعلم أنه ذكي. ربما في الخزانة الموازية أو تحت السرير. بحثت بسرعة هنا وهناك. وعندما انحنت

لتفتش تحت الفراش وجدت صندوقا كبيرا. ربما قفز بداخله. هكذا فكرت. سحبت الصندوق وكانت الصدمة التي أنستها كل ما كانت تفكر فيه وتبحث عنه. مئات الرسائل المكتوبة بخط اليد. عزيزتي ليلى، صغيرتي ليلى، ليلى الصغيرة. لقد مر أكثر من خمسة أعوام على كتابتي لك! أظن أن الوقت قد حان لتكتبي ما تفكرين فيه! سأقص اليوم عليكِ قصة جديدة تساعدك في كشف الحجب عن عين ثالثة في رأسك الجميل! لن تجدي الشمس في غرفة مغلقة!

«يا إلهي! ما هذا؟» لم تقدر على قراءة رسالة كاملة، فقط بعض الجمل كانت كفيلة بإفزاعها وغرس نبتة جديدة شيطانية داخل رأسها. أعادت الرسائل لمكانها وألقت نظرة جديدة متفحصة تحت الفراش، فوجدت صندوقا آخر أصغر حجما به بعض البرطمانات، تحتوي على ألوان، ومعها بعض زجاجات طلاء الأظفار الفارغة والممتلئة.

«يا إلهي!» فكرت من جديد. ثم قامت راكضة. خرجت من الغرفة لا يحركها سوى خوف مظلم يزداد تفشيا في عقلها، أخذت تمشط أرجاء المنزل عن أشياء أخرى مشابهة. فتلك المصيبة يمكن أن تذهب بهم جميعا للجحيم. لماذا تقترف ليلى تلك الجريمة التي يعاقب عليها القانون أشد العقاب؟ من يكتب لها الرسائل؟ هل لنورسين دخل في الأمر؟ هل كتبت هي الرسائل لأختها؟ وإن لم تكن هي، هل تتلقى رسائل مماثلة؟ هل تعلم بالأمر؟ كيف يمكن أن تنقذ الفتاتين؟ تبا!

لم تعد قادرة على النوم. ليال مظلمة كثيرة قضتها وحيدة تفكر وتفكر بلا انقطاع. فقد الدواء تأثيره تماما تحت وطأة الخوف والقلق المقيمين الجاثمين على صدرها. حتى بلغ الأمر ذروته حينما بُلغت الأسرة فجرا أن الأم في المشفى. هرع الثلاثة لزيارتها والاطمئنان عليها فوجدوها تعاني من انهيار عصبي حاد. سلموهم متعلقاتها الشخصية. حقيبتها الفارغة إلا من المفاتيح وغطاء صوفي ثقيل، نظيف ومطرز. لم يكن لهم. ربما هو خطأ ما في قسم الأمانات، هكذا فكروا حينما أعادوه. لم يخبرهم أحد أنها كانت مفترشة الغطاء الصوفي على بوابة المشفى. وأنهم عثروا عليها صدفة حينما تعثر بها أحد الأطباء المغادرين ملقاة أرضا وفاقدة للوعي، وجهها مخدوش بأظفارها ومخضب بالدماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح كئيب مر على ثلاثتهم. أعدت نورسين الفطور وحاول كلا منهم التغلب على غصة في حلقه في أثناء الأكل. لم يرفع أي منهم بطاقة. كان هذا هو العادي بالنسبة للأب الذي لم يكن يحادث الفتاتين إلا عندما ترتديان الزي المدرسي وتخطو أقدامهما أرض المدرسة. فتتحولان من ابنتين لتلميذتين.

ويخلع هو من على عقله صفة الأب الثقيلة ليرتدي صفة مدير المدرسة الأكثر ملائمة. وعندما تعودان للمنزل، وتخلعا حقائبهما المدرسية وصفاتهما المدرسية. تعود تلك الفتاتان الغريبتان عنه تماما. والآن سقطت عن نورسين صفة الطالبة للأبد وسقطت معها تلك العلاقة اللطيفة البسيطة التي احتضنتها جدران المدرسة. والتي ما زالت تضم ليلى إلى الآن. كان صباحا سيئا بالمقاييس العادية إلا أن الأسوأ لم يكن قد أتى بعد. كانت سيارة سوداء كبيرة بزجاج أسود تماما تنتظر أمام بوابة المنزل. وما هي إلا دقائق حتى اقتحم بعض عناصر الأمن الأبواب للقبض على الفتاتين وإيداعهما معسكر الإصلاح والتهذيب. أبلغت الأم عن ابنتيها. كيف حدث هذا؟ هل كانت تفكر بأمن البلاد أم بأمن الفتاتين؟ لا يهم. المهم أن صفحة من حكايتهم انطوت وفتحت صفحة أخرى مظلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني: السقوط

«قالوا الأمل...

هو حسرة الظمآن حين يرى الكؤوس

في صورة فوق الجدار

هو ذلك اللون العبوس

في وجه عصفور تحطم عشه فبكى وطار

وأقام ينتظر الصباح لعل معجزة تعيد

أنقاض مأواه المخرب من جديد»

نازك الملائكة

كان كل شيء مظلما. حاسة أخرى عطلت لتصنع مع موت الحواس الأخرى حالة من الفزع والوحدة التامة. غميت أعين ليلى، ولم تشعر بعدها سوى بالاهتزازات المتكررة للسيارة. ثم توقفت الاهتزازات، واستبدلت بها قبضة محكمة على الذراع تقف على حافة الألم. قبضة تقودها إلى مجهول قابع في معسكر الإصلاح والتهذيب. تلك الفزاعة التي يستخدمها الأهل لتخويف صغارهم وتقويمهم. ويستخدمها كل شخص لإعادة ضبط تفكيره على التردد المناسب والمسموح إن حدث وانحرف قليلا عنه لسبب أو لآخر. أجلست على مقعد ما، وتركت وحيدة مع فيض من القلق يغرق أفكارها، ساعة ربما، أو ساعتين، أو أكثر. لا مجال لتحديد الوقت. يمكن القول فقط إنه أطول من أن يحتمل. ترى ماذا سيحدث بعد؟

تردد هذا السؤال عشرات المرات، دون تصور واضح للإجابة. وبعد مرور الكثير من الوقت، ونزف الكثير من الأسئلة والمخاوف كُشِفت عيناها، لتبصرا ما هو بعيد تماما عن كل توقع مر بمخيلتها.

كانت غرفة فسيحة، ساطعة الإضاءة، تطل نوافذها الضخمة على حديقة كثيفة الأشجار. أزهارها ملونة بشدة في تنوع كرنفالي بهيج يمتع النظر، أغلب ما في الغرفة كان ملونا بالأبيض، أو بتنويعات له تحمل لمسة خفيفة من كل لون آخر. حتى المرأة الجالسة على المكتب، كانت ترتدي فستانا أبيض أنيقا وبسيطا. بدت في جلستها خلف مكتبها كرسمة مؤطرة بالزهور خلف النافذة. وعلى وجهها لاحت ابتسامة حنون ونظرة ثاقبة ذكية.

«مرحبا بك في معسكر الإصلاح والتهذيب»

رفعت البطاقة الورقية التي ظهرت في خلفيتها صورة باهتة لمبنى ضخم أنيق، بدا لها أنه موقع المعسكر.

«لقد تم التبليغ عن ارتكابك مخالفات جدية، ولذلك ستتم استضافتك في معسكر الإصلاح والتهذيب لفترة، سيتم تحديدها من خلال تقييمنا المستمر لك»

أين ذهبت نورسين؟

لقد قرأت معها بطاقة الضبط، ثم اختفت تماما، هي تعلم جيدا الجريمة التي قبض عليها بسببها، لكن لماذا نورسين؟ ولماذا كان اسم الأم ببطاقة الضبط في خانة مقدم البلاغ؟ هل أبلغت أمها عنهما؟ ربما تكون اكتشفت الرسائل والألوان والأوراق بغرفتها، لكن هل يمكن أن يجعلها ذلك تلقي بها لذلك المصير المخيف؟ لماذا؟

ترى أين ذهبت نورسين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد هربت، وللمرة الأولى في حياتها تجرب هذا الإحساس الغريب بالخوف، شعور أنها مطاردة ومعاقبة. عندما قرأت بطاقة الضبط، ورأت أختها تقاد للسيارة السوداء الكبيرة. كان الهروب في تلك اللحظة بالنسبة لها فعل بقاء. وفي جزء من الثانية وبسرعة لم يلحظها الشرطي ولا الأب الذي خرج راكضا خلف ليلى. أقحمت يدها في فمها لينفجر منه القيء بسرعة. لطالما فعلت هذا في أوقات أخرى لتحافظ على وزنها. لكنها تفعله الآن لتحافظ على حريتها. ركضت نحو المرحاض وأغلقت عليها الباب، وأخذت تصدر أصواتا مشابهة لتوهم الشرطي الطارق بعنف على الباب أنها مستمرة في التقيؤ. وفي الواقع كانت تقحم جسدها في النافذة المطلة على الحديقة الخلفية للمنزل. انسلت من النافذة بسهولة وركضت مبتعدة عن المنزل كما لم تركض من قبل. فهي للمرة الأولى في حياتها المنضبطة، تجري في الاتجاه المعاكس لمجرى القانون.

كانت تعرف المنطقة جيدا. كل طريق وكل حديقة يترك بابها مفتوحا. كل سيارة وشجرة وجدار يمكن أن تلتحف عباءته لتتخفى وتضيع من صفحة رؤيتهم. واصلت الركض والتخفي ثم الركض من جديد حتى وصلت لمنزل أستاذها، الأستاذ والحبيب والعشيق. لم تكن قد زارته في منزله قط لكنها كانت تعرفه جيدا. كثيرا ما حدقت في نوافذه المفتوحة لعلها ترصد مشهدا من حياته اليومية. لكنها لم تكن ترى سوى أطفاله الثلاثة يلعبون كالقرود. كبست الزر على الباب، ليضيء لمن بالداخل منذرا بقدوم أحدهم. اليوم يوم عطله ومؤكد أنها ستجده. أسندت جبهتها على الباب وكبست من جديد، المرة

تلو الأخرى دون أن يفتح أحد. نظرت حولها، فوجدت النافذة التي اعتادت أن تراها مفتوحة. اقتربت منها، وأقحمت رأسها فيها، وما إن فعلت ذلك حتى وجدت كف ما يربت على كتفها بقوة. أدارت رأسها فوجدت زوجته تلكزها بغضب في كتفها. كادت تبكي، لكنها لم تفعل. ضبطت جهازها اللوحي على بطاقة «مرحبا، جئت لمقابلة الأستاذ صاحب المنزل»

فضبطت الزوجة هي الأخرى جهازها «هل يمكنني معرفة سبب الزيارة؟»

فأعادت نورسين عرض ذات البطاقة «مرحبا، هل يمكنني مقابلة الأستاذ صاحب المنزل؟»

حدجتها المرأة بنظرة متفحصة، شعرها الأصهب الطويل، وملامحها المنمنمة وعينيها الزرقاوين، ورأسها المتناسق لدرجة تدعو للسخط والذي أقحمته توا في نافذة غرفة معيشتها. كلها أشياء جعلتها تدعوها للدخول بوجه خال تماما من الترحاب. دفعت باب المنزل، وفي يدها المكتنزة، لمحت نورسين سوارا يلتمع حول معصمها، كان سوارا ذهبيا مزينا بحلية على شكل علامة المالانهاية، تماما كالذي أهداه لها. ترى هل هو من أهدى ذاك السوار لزوجته؟

أجلستها على الأريكة وارتقت السلم بثقل مقصود. تركتها وحيدة وللمرة الأولى في غرفة معيشة رجلها، تحسست الوسائد المخملية المبعثرة حولها وفكرت، ترى كم مرة جلس على تلك الأريكة؟ قربت إحدى الوسائد لأنفها علها تتشمم عطره فيها ثم ضمتها بقوة وطفرت من عينيها دموع حارة. ماذا ستفعل الآن؟

مر وقت ليس بقصير، قبل أن ينزل على السلم تتقدمه زوجته ذات الخطى الوئيدة. رمقها بنظرة لم تعتد عليها، خليط من المفاجئة والغضب والتقريع. لم تكن ذات العينين اللائي تألفهما واللائي تاقت لرؤيتهما الآن. لوى شفتيه ونظر تجاه زوجته، ثم بحركة آلية وابتسامة منتزعة بصعوبة. سحب اليد المكتنزة نحو وجهه وقبلها. لم تكن نورسين قد أفلتت الوسادة من بين ذراعيها. أحكمت ضمها من جديد وقربت وجهها منها لتخفي شفتيها المرتعشتين. لم تكن قد فكرت قبل الآن في سبب مجيئها إلى هنا، لكن قط لم يخطر ببالها رد فعل كهذا، هذا الوجه المتجهم، وتلك القبلة الكريهة. لف زوجته بذراعه وتوجها نحو غرفة المكتب، وغابا طويلا حتى أصابها الذعر وغمرها شعور ثقيل بالوحدة والضياع. انتظرت أن يعود، فلم يعد لما يقارب النصف ساعة، رأته بعدها متوجها نحو باب المنزل، ولم تلحظ جهازه اللوحي المنطبعة فوقه صورتها مرفقا بها بطاقة «مطلوب القبض على صاحب الصورة، على من يعثر عليها إبلاغ الشرطة فورا». وقفت ومدت رأسها بذعر تراقبه وهو يفتح الباب لأحدهم، لتجد أنها الشرطة مرة أخرى. هل تهرب ثانية؟ هل أبلغ عنها

رجلها؟ كانت الفكرة صفعة قوية هدمت كل ما تبقى فيها من قوة وعزم على فعل أي شيء. إن كان هو قد أبلغ عنها، فليس هناك ما تحارب لأجله. هو وقبله أمها وقبلهما حماقات ليلى التي بدأت كل هذا الكابوس. كان الرجال ذوو البذات السوداء يتقدمون نحوها. أحست أن سوادهم ينسحب على كل ما حولها بالتدريج ليمحوه تماما. وعندما اكتمل السواد، سقطت بين يدي أحدهم. فحملها ووضعها في السيارة الكبيرة المغلقة كقبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي النهاية اجتمعت الفتاتان من جديد، لكنها ليست نهاية وإنما بداية لشيء غامض. علامات استفهام كثيرة تحوم في المكان، وسط البياض المبالغ فيه لمكتب السيدة اللطيفة، التي عنيت باستقبالهما في المعسكر.

«مرحبا بك في معسكر الإصلاح والتهذيب»

رفعتها من جديد للترحيب بنورسين. وبعين مدربة، قرأت نورسين البطاقة وحللت الصورة في الخلفية، الألوان المتدرجة بين الأبيض والوردي، حجم الصورة المقربة لمبنى المعسكر، وتداخله مع النص. ترى من صنع تلك البطاقة؟ وهل تصنع البطاقات المستخدمة في هذا المكان بنفس الطريقة التي تتبعها هي؟ هل كان ما حدث في منزل أستاذها حقيقة أم حلما؟ هل هي بالفعل موجودة في معسكر الإصلاح والتهذيب، أم أن كل هذا كابوس مقيت يأبى أن ينتهي؟ قطعت أفكارها يد صغيرة أمسكت بكفها، تشبثت بها كأنها تستنجد، تستغيث، تواسي. التفتت بجوارها، فوجدت ليلى تجلس كالتمثال، مادة يدها اليسرى نحوها. ليلى، أخت مسكينة، غريبة الأطوار، تحتاج للتفهم ولقدر كبير من التسامح. هكذا كانت تراها، أما الآن فليست سوى حلقة من سلسلة حديدية محكمة الغلق حول عنقها، تملصت من يدها وسحبتها بعنف، وحدجتها بنظرة كريهة، حديثة العهد بعينيها اللتين كانتا تغدقان عليها حنانا ورحمة..

قضت ليلى وقتا طويلا وحيدة في هذا المكان الغريب. بعد أن رحبت بها السيدة البيضاء الغريبة، وقبل أن تصل نورسين لتشاركها ذعرها وفضولها واستغرابها. بضع ساعات، قضتهم جالسة على المقعد كتمثال شمعي لا يسمح له بالحركة. في حين حلق عقلها فوق كل شيء. يحاول أن يفهم ما يجري ويعدد الاحتمالات، ويبني التصورات المختلفة لما يمكن حدوثه. لماذا أبلغت أمها عنها؟ ولماذا نورسين؟ لماذا لم تكتفِ بتوبيخها ومنعها من الخروج، ومن الكتابة؟ كان يمكن أن تحرق كل الرسائل، تفرغ الألوان في مجرى النيل ثم تلقي بالأواني الصغيرة في القاع فتختفي آثار الجريمة التي ارتكبتها ابنتها الصغيرة إلى الأبد. هل خافت عليها أم خافت منها، أم أن الخوف أصابها

وتغلغل فيها مسقطا كل المسميات والتوصيفات الممكنة، متحولا إلى ذعر أعمى لا يعلم له وجهة أو مهجعا؟

«لقد ارتكبت جريمة وخالفت قانون البلاد المعروف ولذلك سيتم التحفظ عليك لفترة في معسكر الإصلاح والتهذيب»

بطاقة سوداء خالية من الصور والألوان، يتوسطها النص المكتوب بخط الرقعة الأحمر.

«كل الموجودين هنا يهتمون لمصلحتك، ويحاولون بجد الاهتمام بك ومساعدتك على إصلاح خطأك»

«وما هو خطأي؟» فكرت نورسين.

دخل شخص أنيق يحمل صينية عليها كوبان من عصير البرتقال الطازج، لم يكن مظهره يدل على أنه نادل أو شيء من هذا القبيل، كان وسيما بجسم رياضي وشعر متوسط الطول ومسرح بعناية. قدم لهما العصير على التوالي بتهذيب ولطف، ثم وقف مجاورا للمرأة، يراقبهما في صمت ويبتسم، لتصبح أمامهما ابتسامتان متجاورتان، ولكنهما ما لبثتا أن تضاعفتا وصارتا أربع ابتسامات تطوف في الهواء أمامهما كبلالين الهيليوم. ثم تضاعفت من جديد، تسبح في فضاء ضبابي كثيف تلاشت منه التفاصيل ولم تبق سوى أشباح محلقة تداعب ما تبقى في رؤوسهما من وعي. لكن القليل المتبقي نفد. وانسل من عقولهما حتى صارتا جسدين مفرغين تماما من الوعي، لقد كانتا عطشتين، ولهذا لم تتريث إحداهما في تجرع العصير بسرعة ونهم. ولم تنتبها لذاك النعاس المتسلل ببطء لداخل رأسيهما إلى حينما فرض سيطرته عليهما تماما، وفقدتا الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت ليلى بعد وقت لا تعلم طوله في مكان لا تراه. الظلام يحتل مجال بصرها من جديد، استغرقت لحظات حتى تتبين وضع جسدها، هل هي نائمة أم جالسة أم واقفة؟ كانت نائمة على أرض ترابية رطبة، تفوح منها رائحة نتنة. ويدها مقيدة بسلسلة حديدية إلى الجدار. وألم شديد يعتصر معدتها الفارغة. حاولت أن تستعمل كفها الحرة في رسم تصور ما عن المكان حولها، لكن لم يكن هناك سوى جدار خرساني وأرض وسلسلة حديدية. فجأة انحصر العالم في تلك الأشياء الثلاثة. مر الوقت بطيئا كغيمة مشؤومة تحجب النور وتجلب في إثرها الموت.

«أشعر بالمرض، في جسدي وفي روحي، تتقيأ روحي الكلمات، سوداء متخثرة. فتسقط في بئر العدم اللامتناهي. أين أنا؟ وأين تذهب أفكاري وسط

هذا العدم؟ ليت هناك ورقة تؤنسني الآن. أتحسس ملمسها الناعم وتربت على قلبي المريض. ليتني استطيع رؤية الشجرة واحتضانها. لماذا كل هذا، لماذا يا أمي؟ لماذا؟»

نزف عقلها من الكلمات الكثير، كأنها تكتب رسالة أخيرة قبل الموت. رسالة تذر حروفها في الفراغ فتفنى فور ولادتها. والوقت ما زال يمر، والظلام يتسلل ببطء لداخلها، يغطي شيئا فشيئا على الصور الصامدة داخل ذاكرتها ويبتلع أفكارها الواحدة بعد الأخرى. هل مر يوم أم يومان أم أكثر؟ لا تعلم لكن جسدها الواهن غير القادر على الحركة، ينبئها بتساقط أيام كثيرة في بئر العدم الأسود.

«يا إلهي ليس لي سواك الآن. أنا وحيدة تماما، وسط قفر حواسي. لم أعد متأكدة من أني حية. ترى هل مت؟ هل هذا هو الموت. لم أعد أملك أن أحرك جسدي، والعالم انحسر من أمامي ولم يبق سوى الظلام، والموت ظلام وسكون. هل أنا ميتة الآن؟ هل تلك الروائح النتنة هي رائحة تحلل جسدي؟ هل هذا هو قبري؟ هل قتلت وسلسلت روحي الباقية مع جسدي الفاني لتتعذب به؟ لماذا؟ وإلى متى؟»

لم يعد وعيها يترنح بين فترات النوم واليقظة، بل بين نوبات الإغماء وحالات الاستفاقة الآخذة في الانحسار. لقد فرغ جسدها من الطاقة، تخطت عتبات الجوع والعطش والألم، ووصلت لمرحلة الهذيان، وربما الاحتضار.

«الظلام، أتلك هي الحقيقة إذن؟ فقط الظلام؟ أهو الأصل؟ أهو الحالة الطبيعية للكون؟ يحل عليه الضوء زائر مؤقت، فتجتمع في كنفه المخلوقات، كالبعوض المحوم حول عمود الإنارة. وعندما يرحل الزائر، يبقى الأصل. ينمحي النور من فوق صفحته السوداء، بممحاة الوقت، وتظل الصفحة سوداء، وأنا، لقد ابتلعني الظلام، صرت جزءا منه الآن، أجل، لقد صرت قطعة من العدم. لقد تلاشيت تماما، تماما»

لقد وصلت للإغماءة الأخيرة، وقفت على عتبة بوابة الموت المفتوحة، وقبل أن تخطو وتتخطاها، سحبتها يد قوية، لتنغلق البوابة وتبقى حائلا بينها وبين الرحيل إلى عالم آخر. ظلت عيناها مغلقتين، إلا أن جسدها شبه الميت وضع في غرفة مضيئة، على سرير مغطى بملاءة بيضاء. غرست في يديها إبرا موصولة بمحاليل طبية معلقة. لتبث فيها قدرا من الحياة فقدته في الأيام الماضية. استيقظت، مصابة بحالة من الارتباك الشديد، بعد الهواجس والأفكار المظلمة التي غمرتها في الأيام الماضية. فرغم كل شيء يبدو أنها ما زالت حية. إلا أن الأمر احتاج لبعض الوقت لاستيعابه. أفاقت ليلى أخيرا، لتجد أمامها طبيب بملابس بيضاء، بجواره ذات الشاب الوسيم ذو الشعر المتوسط

الطول والمسرح بعناية. أمسك بذراعها وساعدها على النهوض. عبرا معا أروقة طويلة باهرة الإضاءة جعلت عينيها تنكمش من الألم بعد أن ألفت الظلام لأيام. وبعد برهة، وجدت نفسها في نفس المكتب الفسيح، حيث المرأة بالملابس الوردية والنوافذ المزينة بأشجار الحديقة. أجلسها الشاب على نفس المقعد، الآن هناك مقعد واحد، أين نورسين إذن؟

لم تمنح الكثير من الوقت للتفكير، فقد لفتتها الصناديق على مكتب السيدة. صناديق مألوفة تحمل مئات الرسائل والرسوم، وأخرى بها بعض الألوان منزلية الصنع وأنواع مختلفة من ريش الحيوانات وفرش التلوين وعبوات طلاء الأظفار. لقد وضعت جريمتها مكتملة أمامها ولم تفهم ما ينبغي عليها فعله، هل تعتذر، كيف تعتذر وقد جردت من جهازها اللوحي؟ وبالطبع لن تستطيع الكتابة لهم لتكون بذلك تكرر نفس الجرم الذي تعاقب من أجله.

«لقد ارتكبتِ جريمة يعاقب عليها القانون، وهي جريمة الكتابة وتداول منشورات غير مصرح بها من مركز البطاقات الرئيسي»

لو أن نورسين هنا، للفتها شكل البطاقة الأسود تماما. حيث العبارات مكتوبة بخط الرقعة الأحمر. هي لم تصنع أبدا بطاقات سوداء، دوما كان يجب أن توضع صورة ما في الخلفية، وفي أغلب الأحيان تكون صورة بهيجة بشكل أو بآخر. كانت تستمتع بدور محرك الدمى الذي تقوم به مع الممثلين، ولكن يظل السؤال ذاته يتردد في عقلها مقاطعا متعتها، ترى ما هي البطاقات التي يستعملها صانعو البطاقات؟

«الجميع هنا يهتم لأمرك ويسعى لمساعدتك على أن تكون شخصا أفضل»

«هناك عددا من الإجراءات الاحترازية التي سيقوم بها المسؤولون عن حالتك، ومطلوب منك الانصياع التام»

ترى ما المقصود بالإجراءات الاحترازية؟ فكرت ليلى وقد خالجها من جديد الخوف ذاته. ترى ماذا يمكن أن يحدث بعد؟

ابتسمت السيدة من جديد. وابتسم الشاب بلطف وهو يتقدم نحوها، أمسك بذراعها وساقها لغرفة مجاورة، بالإضاءة الباهرة ذاتها. لم تكن قد اعتادت النور بعد، اقتحم عينيها بتوحش مسببا لها صداعا عصيا على الاحتمال. جعلها لا تنتبه لخطواتها وتتعثر مرة تلو الأخرى. حتى أجلست في النهاية على مقعد صغير، حاولت أن تدقق النظر حولها فميزت رجلا يبتسم لها بلطف حاملا في يده آلة جز الشعر الكهربائية. لم تخف منه لأنها لم تتوقع ما سيفعله، تقدم بضع خطوات منها ثم دار حولها ووقف خلفها مباشرة وبدأ في حلق رأسها. لو كانت تملك القدرة على البكاء لبكت بحرقة وهي تراقب الخصل الصهباء

المتساقطة أرضا، لكنها لم تبك من قبل قط. فقط حدقت بصورتها في المرآة تراقب ذلك الشكل الجديد المرعب لنفسها الجديدة. تلك فتاة لا تشبهها تجلس وحيدة وسط أناس لا تعرفهم، فقط لأنها استساغت كلمات جميلة أثمرتها شجرة عجوز، وتغذت عليها عاما بعد عام حتى صارت جزءا منها كلحمها. وما دخلهم بها وبفقاعتها الملونة التي تعيش فيها.

«اتركوني وشأني»

أنهى الرجل عمله، ليبدأه آخر، ومن جديد عادت العصابة على عينيها. واخترقت إبرة ما وريدها لتغوص في غيبوبة أخرى. وبعد وقت طويل وعندما أفاقت، كان الظلام يحتل كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انخرطت نورسين في نوبة من البكاء الهستيري عندما بدأ الرجل عمله بحلق رأسها. قامت من مقعدها وركضت نحو الباب المغلق بإحكام. حاولت فتحه فلم يفتح، سحبها أحدهم من ذراعها وأجلسها على المقعد عنوة. ثبتها بذراعين قويتين وغرس آخر إبرة ما في ذراعها. وعندما استيقظت كانت حليقة الرأس ووحيدة في غرفة مظلمة. توقعت أن يطول الأمر كالمرة السابقة، لكنها ما إن استفاقت حتى فتح الباب. فك رجل قيدها واقتادها نحو مكان ما.

«ناتالي»

كانت تجلس هناك مع السيدة صاحبة المكتب الفسيح حيث كل شيء أبيض مزين بالزهور، بدا كأنها لم تعرفها، إلا أن هذا لم يمنع نورسين من الجري نحوها والارتماء تحت قدميها. وضعت رأسها فوق فخذها وأجهشت بالبكاء. لكن ناتالي تعرفها وأكثر. ربتت على رأسها الحليق بحنو ثم رفعته، ووضعت أمامها جهازها اللوحي المضبوط على بطاقة «سيكون كل شيء على ما يرام». «كيف؟» فكرت دون أن تتمكن من البوح. لم تكف عن البكاء ولم تكف ناتالي عن تمسيد رأسها الأصلع بكف أم حنون. إلى أن بدأت نقاش ما مع السيدة، كل منهما تقلب البطاقات في جهازها اللوحي بسرعة، ولم تقدر نورسين على متابعة البطاقات، كانت مرهقة إلى أقصى حد، فاكتفت بإرخاء رأسها على ساق ناتالي والتشبث بخيط رفيع من الأمل ظهر لها بظهورها. وبالفعل، تمكنت من الحصول على إذن بالإفراج عنها. كان مركزها كرئيس لمركز البطاقات الرئيسي كفيلا بجعلها ضامنا كافيا لإخراج الفتاة. أمرت بأن يساعدها أحدهم على النهوض والوصول للسيارة، وكما يحدث دوما، عندما تأمر فتطاع، أخرجها أحدهم وساعدها على الجلوس في السيارة، لينتهي الكابوس الكئيب. لكن أين تذهب؟

«لقد تم التكفل باستئجار شقة لك»

كأن الفكرة طرأت على الرأسين في اللحظة ذاتها. لم تسأل نورسين، ولم يمنع ذلك ناتالي من الإجابة على ما لم تسأله. حينها فقط اطمأنت وأرخت رأسها على ظهر المقعد وراحت في سبات عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«الظلام من جديد. أنا وخوفي وحيدان الآن، ترى هل يخافني مثلما أخافه؟! ليس هناك ما يؤنس وحشتي سوى الذاكرة. أشعر أن ذاكرتي تتفتح أمامي كصفحات كتاب. صفحات تطفو على سطح الظلام. أشعر أني أذكر كل كلمة قرأتها في حياتي، كل وجه قابلته. تمر أمامي المشاهد فأوقفها بزر إيقاف غير موجود، فتثبت مكانها لأحدق فيها. وفي كل مشهد يمتد فرع أو جذر من الشجرة القديمة. لم أكن أعرف مدى تجذرها وتشعبها في نفسي إلى هذا الحد، إنها جزء من تكويني وأنا من دونها بعض منقوص.»

حاولت تحسس ما حولها، إلا أنها وجدت يديها مكبلتين إلى الحائط. والظلام، يحجب عنها كل شيء. ترى ماذا ترتدي؟ هل هي عارية؟ ما هو شكلها برأس أصلع؟ أين هي؟ لم تكن تعرف أي إجابة على أي من تلك الأسئلة. ومرة أخرى تركت في محبسها إلى أن عاودها الهذيان. حدق فيها الموت بعينين مفزعتين وسط اللون الأسود الذي كسف العالم المحيط بها وأوشك أن يمحوه تماما. وعندها خرجت لغرفة الإفاقة مرة أخرى، ونقلت للمكتب الفسيح، وتوالت أمام عينيها المنهكتين بطاقات كثيرة بدت لها كأنها صنعت خصيصا لها، وهو ما لم تره من قبل أبدا، فكل البطاقات المتاحة عامة وغير شخصية. حتى بطاقات العلاقات الشخصية. تكتب فيها الجمل مكرورة معادة تصلح لاستخدام أكبر قدر ممكن من الناس على السواء. لكن تلك البطاقات ليست كذلك. لو أن نورسين موجودة، لتساءلت عن مصدرها وكيفية صنعها، لكنها ليست هنا الآن، ذهبت لمكان أفضل تحاول فيه أن تجبر ذاك الصدع الكبير الذي تسبب فيه كل فرد من أسرتها.

«الشجر أحد أشكال الحياة النباتية، وهو كائن غير عاقل»

«الإنسان هو الكائن العاقل الوحيد وهو الكائن الناطق الوحيد وهو الكائن المفكر الوحيد»

«التعامل بالبطاقات المختومة من مركز البطاقات الرئيسي هو التعامل القانوني الوحيد في كل المجالات»

«تداول أي منشورات غير مختومة من مركز البطاقات الرئيسي جريمة يعاقب عليها القانون»

«تبين إصابتك ببعض الاضطرابات النفسية والعصبية تسببت في تشوش في التفكير، ما يتطلب تعاطي أدوية تساعدك على الشفاء»

«الشجر لا يفكر ولا يتكلم ولا يكتب، وقد تبين في أثناء التحقيق عدم وجود شجرة من الأساس في المكان المحدد في البلاغ!»

«الالتزام بنظام البطاقات المختومة من المركز الرئيسي، هو التزام بقانون البلاد الذي وضع للحفاظ على أمنها وسلامة جميع مواطنيها»

«تداول أي منشورات غير مختومة من مركز البطاقات الرئيسي جريمة يعاقب عليها القانون»

تتالت البطاقات المكررة، وتكررت فترة الحبس الانفرادي تليها فترة الإفاقة تليها فترة عرض البطاقات ذاتها المرة تلو المرة تلو المرة. لم تعد تعرف عدد مرات حبسها، ولم تعد تميز الليل من النهار ولا الأيام من الأسابيع من الشهور. بدا لها كأن ألف عام مرت على بداية حبسها، إلا أنه كان عاما واحد. بدأته برغبة ملحة في الخروج وأنهته بفقدان الرغبة في أي شيء، وفقدان الإحساس بالحزن والألم والفرحة. عندما علمت بانتهاء فترة عقوبتها لم تبتسم، ولم تبك، فقط حدقت في البطاقة الملونة باللون الوردي والمزينة بصور عصافير صغيرة تطير في الهواء. حدقت فيها بلا مبالاة، حتى أزيحت من أمامها. عام كامل مضى دون أن يذوق فمها الطعام، تغذيها المحاليل في أوقات محددة محسوبة لتبقيها على قيد الحياة، عام كامل تعرضت فيه لنفس البطاقات المكررة في أوقات محسوبة لتضع عقلها على المسار الصحيح، حيث لا طرقات جانبيه تسمح له بالانحراف مرة أخرى. أوصلتها السيارة السوداء نفسها لمنزل الأسرة. الحديقة تغيرت بشكل جذري. تم قطع كل الأشجار وتحويل جذوعها لمقاعد مطلية باللون البرتقالي.

تركتها السيارة أمام بوابة المنزل ورحلت. لكنها لم تطرق الباب. سارت بخطوات ثقيلة في طريق لم تنسه، لحديقة الحيوانات. كافحت للوصول، وعندما اقتربت لفتها أنها لا تعلم كم الساعة، ولا تعرف حتى تاريخ اليوم. رفعت رأسها للأعلى فأبصرت الشمس المتوحشة تتوسط السماء، ربما هي الظهيرة أو ما بعدها. لم تتمكن من إطالة النظر للأعلى. عضلات رقبتها وظهرها في حالة من الوهن الشديد، وعيناها لا تطيقان ذلك النور الساطع. وضعت كفها فوق عينيها تستظل بهما، وتابعت المسير. دلفت للحديقة، وقطعت طريقا كئيبا فارغا من البشر بين أقفاص الحيوانات المحنطة. حاولت أن تتماسك وسط تلك المقبرة المفتوحة لأصدقائها القدامى، شعرت بالثقل في جسدها ينسحب لروحها، وبلغت محاولات الاستمرار حدا من الصعوبة لم تبلغه من قبل. وعندما وصلت لمكان الشجرة القديمة، لم تكن موجودة.

استقرت في مكانها مجموعة من الأرجوحات المكسرة، تغطيها الأتربة وأوراق الشجر الجافة. ترى هل أخطأت المكان؟ هل نسيت مكان صديقتها؟ ترى هل يمكن أن يكونوا محقين في معسكر الإصلاح والتهذيب؟ هل كانت تهذي طوال سنين طفولتها وتكتب لنفسها الرسائل ثم تعيد قراءتها كأن ذاتها انشطرت لنصفين؟

أسندت ظهرها إلى قفص القرود. بعضها أراد أن تدور وتتشبث بالقضبان، وتتملى وجوه أصدقائها. وبعضها ذكرها بأنهم أموات وأراد أن يهرب إلى أقصى مكان مبتعدا عن بقاياهم. ارتخت قدماها، فسمحت لنفسها بالسقوط. جلست أرضا ملصقة رأسها الحليق بالقضبان لكن اليد السوداء الصغيرة لم تربت عليها ولم تلتقط بقايا الكعك المحلى من رأسها وتأكله. الأيادي الصغيرة كلها متخشبة كالتماثيل. أدارت رأسها ببطء وألقت عليهم نظرة طويلة تملأها الحسرة والألم والفزع. مثبتون بالمسامير أحدهم على حبل غليظ متدلٍ من السقف، وآخر على طرف البيت الخشبي، وآخرون حوله. صامتون، ساكنون، حتى الهواء من حولهم ساكنا. كأن كل شيء يشاركهم هيبة الموت حتى الأشجار البعيدة ثابتة الغصون، لا تراقص الرياح كما اعتادتها. هل حنطوا الأشجار أيضا؟!

نهضت بصعوبة، وسلكت طريق العودة بخطوات ثقيلة، تحسست أقفاص الطيور التي لم تعد تطير ولا تغرد. فقط تحدق في الفراغ بأعينها الاصطناعية الصغيرة. ألوانها الناصعة تبدو أبهت وأكثر ترابية. صارت ذرات التراب ترتاح فوق ريشاتها وهي تعلم أنها لن ترفرف لتسقطها. تجمعت عليها فعبثت في هيئتها وتماهت مع ألوانها البهية لتقترب شيئا فشيئا من رمادية الموت. عبرت بين ظباء متحجرة، وجمال وزرافات ساكنة كجذوع الأشجار، مرت من أمام بيت الضباع، كانت بوابته مفتوحة على ظلام كثيف بالداخل. وقفت أمام الظلام الكريه الذي يحمل في بطنه كابوسا قديما، أحست أنها تقف أمام بوابة الجحيم. هكذا هو الجحيم كما تراه، بوابة خشبية مهشمة، خلفها ظلام وصمت ووحدة والكثير من الوحوش.

«الشجر شكل من أشكال الحياة النباتية، والإنسان هو الكائن الوحيد القادر على التفكير»

«لن تجدي الشمس في غرفة مغلقة»

«تداول أي منشورات غير مختومة من مركز البطاقات الرئيسي جريمة يعاقب عليها القانون»

«كتب الشهداء رسائل، تكتب بالدم وتقرأ بالروح، لتعود بعد حين وتكتب بدماء جديدة»

«الكتابة والنسخ واقتناء أي أدوات غير مصرح بها جريمة يعاقب عليها القانون»

«أظن أن الوقت قد حان لتكتبي لي»

«البطاقات المختومة من مركز البطاقات الرئيسي هي الوسيلة الوحيدة القانونية للتعامل بين الأفراد»

«صغيرتي ليلى...

ابحثي عن بروكروست، واحذري أن تسقطي في غفلة منك على سريره، فالكل فعل دون أن يدري»

ازدحمت في عقلها الكلمات حتى تراكمت، صارت ضوضاء بلاصوت، وظلام بلا لون، وثقل لا يطاق بغير وزن. هل يمكن للأفكار أن تبرك على قلب المرء وتدعسه كحشرة؟ هل يمكن للكلمات الكثيرة المتناقضة أن تكتسب وزنا ماديا يطبق على الصدر فيحول بينه وبين أنفاسه. هكذا كانت تشعر، إلى أن سقطت أرضا وغابت عن الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعيدت ليلى لمنزلها. الأوراق الثبوتية في جيبها كانت سببا لتطوع أحدهم بحملها للبيت. وعندما أفاقت كانت في سرير غرفتها، وحيدة، نهضت بصعوبة واتجهت نحو النافذة، كان مشهدا مختلفا تماما عما تألفه، خاليا من الأشجار. صارت الحديقة صلعاء كما صارت هي. عادت نحو الفراش وانحنت لترى ما يوجد تحته فلم تجد شيئا. ثم تذكرت الصناديق المملوءة بالرسائل على مكتب السيدة، وتذكرت البطاقات التي عرضتها عليها لاحقا والمكتوب فيها أنه لم تكن هناك رسائل من الأساس، وأن كل هذا مجرد تلفيق من خيالها المريض. ما هذا العالم إذن؟ تلك الغابة السحرية التي كانت تعيش فيها، تصحرت فجأة، وصارت فراغات متراصة بعضها فوق البعض، وبكل لحظة، تتعثر بلا شيء منهم فيسقطها أرضا. شيء ما لمس كتفها. فذعرت وقفزت حتى التصقت بالحائط. أبصرت أمامها أمها التي لم تقابلها منذ عام كامل. لقد أفزعتها اللمسة غير المتوقعة لكن ما رأته أمامها أصابها ببؤس فوق بؤس. كانت أمها ترتدي جلبابا طويلا متسخا، وعلى وجهها بدت تجاعيد لم تكن فيه من قبل، صارت امرأة عجوزا بشعر أشيب أشعث ووجه بائس وعينين ذاهلتين. وقفت أمامها تتفرس كل منهما في وجه الأخرى، حتى اقتربت ليلى قليلا ومدت يدها لتلمس وجه أمها، فتباعدت الأخرى وتراجعت بضع خطوات إلى الوراء. توجهت نحو خزانة الملابس وأخرجت بعضا من ملابسها المطوية ووضعتها على الفراش. ثم حدجتها بنظرة أخيره تشبه الاستغاثة، وتشبه الفزع، وتشبه الكراهية، إلا أنها ليست أيا منهم بشكلها الكامل المعروف. وغادرت الغرفة،

مخلفة وراءها العديد من علامات الاستفهام، والعديد من الصرخات المكتومة غير المصرح لها بالخروج.

«كيف تحولت أمي لتلك المرأة؟»

لم تشعر ليلى برغبة في تبديل ملابسها، ولا بأي رغبة أخرى في أي شيء. النوم فقط هو ما يقدر على إخراجها من هنا. عادت لفراشها وتوسلت للنعاس أن ينتشلها من هذا الآن الموحش، فاستجاب لها ونامت.

لم يوقظها سوى نور الفجر. في الماضي كانت أشعة الشمس تتسلل لغرفتها بهدوء بعد أن تغربلها فروع الشجرة أمام النافذة، أما الآن فتقتحم الغرفة بوقاحة وتحتل المكان دون أن يوقفها شيء. «أين أبي ونورسين؟» فكرت، فدفعتها الفكرة للخروج من شرنقة الغرفة وطرق الأبواب المغلقة في الرواق بالخارج. دلفت لغرفة نورسين، فانقبض قلبها من جديد. كان كل ما بالحجرة مغطى بطبقة سميكة من التراب. الغرفة ميتة تماما ليس بها ولو أثرا ضئيلا للحياة. فتحت خزانة الملابس فوجدتها فارغة، الأدراج كلها فارغة كذلك. أرفف الأحذية خالية، مشجب الملابس عارٍ تماما. «أين ذهبت نورسين؟!»

خرجت للرواق من جديد، فتحت بهدوء باب غرفة والديها، فرأت أمها تغط في نوم عميق. وأبوها غير موجود. ألقت نظرة على أركان الغرفة، كانت الفوضى تعم كل شيء وليس هناك أثر للأب. واصلت البحث عنه حتى وجدت باب الحمام مغلقا على ضوء وظل يتحرك بالداخل. انتظرت بضع دقائق حتى فتح الباب. ذُعِر أبوها أول وهلة، إلا أن الذعر ما لبث تلاشى أمام اشتياقه لفتاته الصغيرة. ضمها بقوة، وهي، استكانت تماما وأغمضت عينيها المجدبتين، دون أن تتحرك ولو قليلا. أفلتها من بين ذراعيه ومسح على رأسها ثم طبع عليه قبلة طويلة.

«هل يبكِي أبي؟»

كانت المرة الأولى التي يبدِي فيها تلك العاطفة الغامرة، كان دوما متباعدا مكتفيا بدوره كمشرف على تربية الفتاتين في المدرسة، مستعيضا بذلك عن دوره كأب. «ماذا تغير يا ترى؟»

سحبها من يدها حتى خرجا من المنزل، أجلسها على المقعد الجديد ذي اللون البرتقالي الفاقع في الحديقة وجلس بجوارها، ثم ضبط جهازه اللوحي

«لقد افتقدتك كثيرا»

لم تكن قد استعادت جهازها اللوحي بعد، وكان ذلك بمثابة إعفاء لها من الرد على أي مما يقوله أبوها.

«لقد غادرت أختك المنزل»

«أمك مريضة جدا وتحتاج للرعاية»

«لقد افتقدتك كثيرا»

كانت تقرأ كل بطاقة، ثم تنظر لعينيه المغرورقتين بالدموع، لتكون المرة الأولى التي تشعر فيها بالشفقة عليه. ربما المرة الأولى التي تشعر فيها بأنها ابنته وليست مجرد طالبة من ضمن طالبات المرسة التي يديرها. رفعت كفها قليلا نحو وجهه ثم أعادتها لرقدتها من جديد، هل يمكنها أن تربت على ذقنه الخشن؟، هل يمكنها أن تمسح تلك الدمعة الصغيرة المنحدرة على وجنته؟ هل يمكنها أن تستقبل تلك الدمعة الأولى بنظيرة لها من عينيها فتكون لحظة حميمية تلتقي فيها أعين دامعة وقلوب حزينة؟ لكنها لا تبكي. لم تتمكن من ذلك قط. جلسا قليلا في سكون ثقيل. حتى الأشجار البعيدة في حدائق المنازل المجاورة ساكنة لا تتحرك. الستائر المطلة من النوافذ متجمدة كأنها مصنوعة من الزجاج الملون. بدا لها كأن العالم بأكمله متوقف عن الحركة، وكأن الأرض توقفت عن الدوران في أقرب موضع لها من الشمس. حيث الاحتراق البطيء والنهاية المحتومة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاولت في الأيام القليلة التالية أن تعثر على نورسين فلم تستطع، كانت تجوب الشوارع مرتدية سترة سوداء بغطاء رأس كبير، تخفي به مظهرها الغريب. أين تذهب؟ هل تهرب؟ وهل سيفرق مكان قريب عن آخر بعيد. كل الأماكن صماء وبكماء ولا فضل لمكان على آخر. وفي نهاية كل يوم تعود لمنزلها لتقضي ما تبقى من يومها وحيدة في غرفتها المغلقة، تغرق في صمت لزج، ينساب كالقطران فوق عقلها فيعميه ويعزله عن العالم. وما هو العالم وسط هذا التيه؟ لم تعد ترى أمها سوى لبضع لحظات قليلة، حين يتصادف مرورهما بنفس المكان، داخلة للقبو أو خارجة منه. كانت أحيانا ما تترك بعض الطعام سريع التحضير على طاولة المطبخ، وأحيانا أخرى يتولى كل شخص مهمة إطعام نفسه بنفسه. لم تعد تخرج من المنزل أو تستقبل أي شخص فيه. صار القبو هو عالمها المظلم الوحيد حيث تعمل فيه بدأب على تحنيط الحيوانات، وتنظيمها في تشكيلات معلقة على الحوائط أو مرتبة فوق أرفف وطاولات تحتل المساحة العظمى فيه. يوما بعد يوم تزداد غرابة وعزلة. ويزداد إشفاق ليلى عليها. وبعد بضعة أيام، في مساء ما، لاحظت حقيبة سفر موضوعة أمام باب المنزل. وقفت تحدق فيها بضع دقائق حتى جاء أبوها في كامل حلته، عرض عليها بطاقة «سأفتقدك كثيرا» و«أحبك كثيرا يا ابنتي العزيزة» ثم طبع قبلة على جبهتها وغادر المنزل. لو أنها تقدر على الصراخ في تلك اللحظة لصرخت بلا توقف، لكنها لا تستطيع. وقفت تراقب

السيارة المبتعدة عن المنزل، المخترقة الأفق المظلم الخالي من الناس حتى اختفت، لم يكن هناك أحد في الشارع سوى شخص يقف في موضع بعيد وينظر تجاهها. كان يرتدي سترة رياضية بغطاء رأس ولا يظهر من وجهه شيء، لكنه كان متوجها ناحيتها تماما. لم تعر الأمر اهتماما في تلك المرة، ولا في المرة التي تلتها، إلا أن الأمر بدأ يثير ريبة ما فيها بعد أسبوع أو أكثر. كانت في تلك الأيام القليلة قد تعرفت على بعض الرفاق، وللمرة الأولى في حياتها المكونة من ستة عشر عاما، تتمكن من الانخراط في مجموعة ما، ثلاثة شبان وفتاتين، شلة ينقصها فرد واحد لتكتمل الثنائيات المكونة من شاب وفتاة. كان يومهم يبدأ من حيث ينتهي يوم الآخرين، يجوبون الشوارع ليلا على ألواح التزلج والأحذية ذات العجلات، يتسللون للمناطق الأثرية المقفولة ويلتقطوا لأنفسهم الصور أعلى مآذن القاهرة القديمة وفي صحونها المهجورة. كان آدم وهو الشاب الوحيد فيهم في منتصف العشرينات، رأسه أصلع وموشوم برسوم سوداء متشابكة يصعب فهمها، جسمه رياضي يجعل من ملامح وجهه الغريبة أمرا محتملا ومقبولا. كانت عيناه قاسيتين وأنفه معقوفا وذقنه سوداء كثة. ربما أول ما لفت نظرها له هو كلبه الهاسكي. استوقفتها عيناه الساحرتان وجعلتاها تقتحم جلستهم بلا استئذان، جلست على ركبتيها وأخذت تداعب رأسه وتمسح وجهها بوجهه. أعجبته جرأتها، ورغم رأسها الحليق، وجدها جميلة وتشبهه بشكل ما. عرض عليها الانضمام لشلتهم فقبلت دون أن تفكر.

وفي ليلتها الأولى معه، علمها كيف تركب لوح التزلج، لم تخف كعادتها، وكان هذا كفيلا بإثبات وجهة نظره فيها أن بها شيئا ما مختلفا. تزلجت في الشوارع وعلى الجسور، وعلى السلالم الرخامية، وقعت ونزفت قدماها ثم عادت وواصلت التزلج. كان الكلب يجري خلفهم، يسابقهم ويسابقونه، إلى أن توقف وبدأ في النباح. عادوا جميعا ليصطحبوه. شدوا سلسلته لكنه كان مصمما على الوقوف ومواصلة النباح. وفي المقابل كان هناك نباح آخر آت من مكان بعيد. دققوا النظر فوجدوا شخصا يرتدي غطاء رأس واقفا وسط مجموعة كبيرة من الكلاب، لم يكن وجهه ظاهرا إلا أنه كان ينظر باتجاههم بلا أدنى شك. أمسك آدم بسلسلة الكلب وتقدم باتجاهه إلا أن الكلب أبى أن يتحرك. مدت ليلى يدها وسحبته من ذراعه، كانت يدها بضه صغيرة، وكانت ذراعه قوية. هكذا فكر كلاهما في ذات اللحظة، فنسي هو المعركة التي كان يوشك أن يفتعلها، ونسيت هي ذلك الشبح الذي ظهر لها للمرة الثانية في أقل من أسبوع.

في الأيام القليلة التالية، زارت معهم أماكن لم تكن تعلم بوجودها من الأساس. شوارع قديمة مسورة بأشرطة صفراء مكتوب عليها أنها أماكن قيد الإصلاح. القاهرة القديمة، قاهرة المعز، القاهرة الفاطمية، مسجد السلطان

حسن ومسجد الرفاعي، مسجد السلطان برقوق وسبيل السلحدار، بيوت قديمة من عصور مضت، بيت السحيمي، بيت زينب خاتون، بيت السناري، كلها أماكن قيد الإصلاح والتجديد كما كتب على اللافتات والشرائط الصفراء الطويلة التي تحيط بها. وما بين جيل تساءل ولم يعرف، وجيل لم يعرف فلم يتساءل، وجيل لم يعد يرى من الأساس، صارت تلك الأماكن كأشباح خفية، تَرى ولا تُرى. تشهد على التاريخ الجاري حولها ولا يشاهدها أحد. كانت تركض في صحون مساجد أمست بغير اسم، يحاول هو اللحاق بها، لكن صدره المعبأ بدخان السجائر يمنعه. يلهث الجميع وتواصل هي ركضها في الصحون والأروقة. تتسلق المآذن وتنفرد بخيالها في أعلى موضع يمكن وطؤه. مآذن سامقة وعتيقة تماما كالأشجار. هنا كان يعبد اللـه في زمن قديم، ترى أين يعبد الآن؟ لماذا هجر الناس تلك الأماكن البديعة؟ إنها تحمل روحا ذات حضور طاغٍ. تكاد تراها وتلمسها وتسمع همسها الخافت في آذانها. تلصق وجنتها بالجدران الحجرية، تتشممها، يتحرك لسانها بكلمة واحدة مرارا وتكرارا «اللـه». هي لا تذكر الكلمات المناسبة لذكره، لكن مجرد ترديد اسمه يبعث في نفسها الطمأنينة والأمان. لتتشكل لحظة شبه كاملة من الإشباع، لحظة واحدة، كأنها قفزت إلى أعلى ولمحت سرا ما ملأ قلبها بالنور. ثم عادت وسقطت من جديد.

في تلك الليلة، دخل آدم من الباب الخلفي للمنزل. توقع أن يفزعها لكنها لم تفزع. سحبها من يدها وخرج بها للفناء الخلفي، أخفض رأسها بيده ومشى منحنيا بهدوء حتى وصل للشارع، أشار لها بيده أن تتمهل، وببطء عبرا الشارع للجهة المقابلة، أشار لها نحو شيء ما بعيد، وعندما نظرت، أبصرت نفس الشخص بغطاء الرأس واقفا قبالة منزلها. دققت النظر لكي ترى وجهه لكنه كان مخفيا تماما بظل أسود. مكثا هناك طويلا لا يتحركا، وهو لم يتحرك كذلك إلا بعد وقت طويل قارب على الساعة. مشى، فمشوا خلفه دون أن يدري. فهمت ليلى أن آدم ينوي مراقبته، ودفعها فضولها لمطاوعته، فها هم الآن يسبقونه بخطوه، ويمشون في إثره بدلا من أن يمشي في إثرهم. كانت تفاهة مناسبة تماما لقضاء وقت فراغها الكئيب. واصلا المشي خلفه حتى وصل لمنطقة من المناطق الأثرية المهجورة، جامع أحمد بن طولون، أو هكذا كان منذ أعوام طويلة قبل أن تنزع لافتات التعريف عن المكان، ويترك وحيدا تماما كبقية الآثار المشابهة. لم يدخل الرجل المسجد، بل توجه لبناء ما بجواره ودلف إليه. منزل قديم جميل كان اسمه في الماضي «بيت الكريتلية»، تزين جدرانه المشربيات الخشبية، وبجواره حديقة مزروعة ومعتنى بها جيدا، كان المنزل والحديقة كأنهما صورة ملونة ملصقة على صفحة مطلية بدرجات الرمادي، زهرة نابتة وسط مقبرة.

وقفت ليلى وآدم بالقرب من الباب، لم يخبر أحدهما الآخر برغبته العارمة في الدخول، إلا أنهما عرفا دون الاضطرار لاستخدام جهازيهما اللوحيين. فرك لحيته وأخذ يراقبها، لكنها لم تلتفت تجاهه. دفعت الباب ودخلت، بخطوات واثقة وقامة مستقيمة، لم تحاول التسلل أو الانحناء لإخفاء نفسها. وهو، أخرج من حذائه مطواة صغيرة وتبعها. كان منزلا مغرقا في القدم، طرازه غريب لم يرياه من قبل، الحجرات صغيرة مزينة بمفروشات خشبية تشبه الموجودة بمحال بيع الأنتيكات، وعلى الجدران علقت لوحات عتيقة مغطاة بالتراب بالكامل. وقفت ليلى قبالة أحد الجدران ومسحت على أحدهم، فتساقطت أتربة أعوام طوال من عليه وبدا لها من تحته صور ونصوص غريبة، لا يبدو أنها مختومة بختم مركز البطاقات الرئيسي، ابتسمت، شعرت لوهلة أنها خارج نطاق سطوته، نملة صغيرة تقف على بقعة متربة خارج الإطار الذي يؤطر كل البلاد. تحسست الكلمات، وكان الضوء شحيحا لتقرأها. إلا أنه لم يكن معدوما، قرأت شيئا ما عن نفر من الجان يسمى سلطان الوطاويط. يسكن بئرا مسحورة تتوسط ذاك المنزل حيث يقفون. وفي البئر تسكن بناته السبعة ليحرسن كنزا عظيما متمثلا في سرير من الذهب الخالص لكل واحدة منهن. ضحكت، تذكرت الحكايات والأساطير التي قرأتها وهي تتأرجح على فرع شجرة. كادت تلك الذكرى تستنبت من عينها دمعة، لكنها لم تفعل. شيئا ما زحف ببطء على كتفها، استدارت فوجدته آدم يشير لأحد النوافذ، كانت مجموعة كبيرة من الكلاب تنبح وتقفز على حائط المنزل. يخمشون الباب بأظفارهم ويتقافزون فوق بعضهم البعض. بالتأكيد هم نفس الكلاب التي كانت تحاوطه من قبل، هكذا فكرا. لقد كشفوا وجودهما وحاصروهما، كيف سيتمكنان من الهرب الآن؟

أمسك بيدها وقادها لغرفة مجاورة، كانت غرفة صغيرة كذلك تتوسطها بئر! أخذ يدور في الغرفة بحثا عن مخرج آخر، وأخذت هي تحدق في البئر مسترجعة ما قرأته توا. حتى لاحظ كلاهما نورا يقترب من باب الغرفة، كان أحدهم يحمل كشاف نور ويمشي ببطء تجاههما، توقف النور الموجه لأعينهم مباشرة عن الحركة، فتوقفا كذلك، محاولين استظهار شكل الشخص الذي يحمله. لكنهما لم يريا شيئا. والنور، بدأ في التراجع شيئا فشيئا حتى فُتح باب المنزل وخرج منه. ألقيا نظرة من النافذة فوجدا الشخص حامل الكشاف منحنيا وسط الكلاب يربت على رؤوسها ويهدئها. لم يكن هناك بد من الخروج، سيحاولان على أية حال وفي أسوأ الأمور هناك مطواة جاهزة للاستخدام في الدفاع عنهما. أسرعا للخارج ركضا. أمسك بيدها ولم يلتفت إلى الوراء، أما ليلى فأخذت تدور برأسها إلى الخلف حتى ترى ما تركض منه، كانت ليلة مقمرة وكان الكشاف قويا، والشخص الذي يحمله كان شديد البياض، ينعكس النور على وجهه فيكاد يضيئه، للحظة واحدة تمكنت من لمحه، وجه أبيض

وشعر أبيض، وعينان يقترب لونهما من البياض، يمسك بسلاسل الكلاب المهتاجة ويحدق فيهما وهما يهربان. انكفأت أرضا وشعرت بألم شديد يستشري في قدمها اليسري، لكنها قامت وركضت من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبدى وجهه شديد البياض من غطاء رأسه الأسود ككفن قتيل لم تنضب دماؤه بعد، صبغت بياضه ببقعتين حمراوين، كذلك كانت عيناه المفزعتان تتوسطان وجهه الدميم، كان يركض خلفها على أربع كحيوان جائع، وكانت هي تركض هاربة منه لوقت بدا كأنه ساعات طويلة، بل أيام طوال، كيف لم يسقطها التعب أرضا رغم لهاثها وآلام جسدها المبرحة؟ لم تعرف ولم تملك رفاهية السؤال. التفتت إلى الخلف فوجدته فاغرا فاه عن أسنان صفراء مدممة. شيء ما اصطدم بقدمها فتعثرت وانكفأت على وجهها في وحل الطريق، ليزحف الألم في جسدها بالكامل. شعرت به يعتلي ظهرها ورأت لعابه الكريه يسيل على وجنتها، سخونة غريبة استشرت بين فخذيها، ولسبب ما جعلتها تفقد الوعي شيئا فشيئا... أو تستعيده!

ربما أشفق عليها وعيها فانسل خارجا من ذلك الكابوس المقيت ليفتح أمام عينيها ستائر مسرح صباحها الجديد. فتحت عينيها ببطء لتجد نفسها مستلقية في فراشها بمنزلها الآمن. استشعرت ارتياح اعتادته في تلك اللحظات الرائعة. تلك التي تزف إليها بشرى فحواها أن كل ما قد مرت به توا هو كابوس مضى بلا عودة، لتبدو الحياة لثوان قليلة كأنها نعيم الفردوس السماوي الذي لا يشوبه نقيصة واحدة، إلى أن يعود إليها كامل وعيها بكل ما يحمله من حزن وقلق وخوف قديم، فيتلاشى من حولها النعيم كما تلاشى من قبله الكابوس.

غادرت ليلى أرض الأحلام الكريهة بصدر لاهث وفراش مبلل وألم آخذ في الانحسار إلى أن تمركز في قدمها اليسرى، أزاحت الغطاء من فوق جسدها لتجد ملابسها وفراشها غارقة في بحيرة الرعب خاصتها، تلك التي يصنعها الفزع المتسرب من أحلامها إلى مثانتها الضعيفة ومنها إلى الفراش. صار الأمر متكررا منذ بدء اعتقالها في معسكر الإصلاح والتهذيب. كوابيس متلاحقة تغزو عقلها غزوا وتغادرها منهوكة القوة مبللة الفراش. لحظات قليلة استغرقتها حتى تتمكن من غربلة الأحداث وفصل ما حدث في أثناء نومها عن ما حدث قبله، لكنه لم يكن وقتا ملائما للتفكير، قامت مسرعة، ونزعت الملاءة والأغطية وحشرتهم في كيس قمامة بلاستيكي كبير، خلعت كل ملابسها ودفعتها كذلك وسط الأغطية المتزاحمة في الكيس، هرولت لخزانة الملابس تبحث عن مجفف الشعر الذي أهدته لها نورسين قبلا والذي لم تستعمله قط، انتزعته انتزاعا من تحت طيات الشراشف والملائات المتراصة

في الخزانة، ثم قامت بتشغيله وتمريره مرة بعد الأخرى فوق فراشها حتى توارت البقعة الكبيرة عن الأنظار. دلفت للحمام الصغير الملحق بغرفتها ووضعت نفسها تحت المياة الدافئة المتدفقة، لتزيح عن نفسها آخر أثر للكابوس، لكن ماذا عن الحقيقة التي خلقته في بادئ الأمر؟ تساءل عقلها في قلق، تذكرت الرجل الأبيض، كان شكله غريبا كتمثال شمعي. ترى ماذا يفعل في هذا المنزل القديم بالمنطقة المهجورة؟ وما صحة ذلك الكلام المنسي على الجدران. سلطان الوطاويط؟! تلك القصة الغرائبية تصلح لتكون قصة أطفال شيقة، لكنها ليست قصة أطفال. بل كلام توصيفي لمكان حقيقي وموجود في أرض الواقع. هل يمكن أن يكون هذا هو سلطان الوطاويط؟! هل كان هناك نور يصدر عن وجهه أم أن ضوءي القمر والكشاف انعكسا عليه فأضاءاه؟ كانت ليلة خطيرة، ورغم ذلك كان استرجاع أحداثها يسبب لها شيء من النشوة، ربما لأن كل تفاصيلها تحمل من الجدة والغرابة بقدر ما تحمل من الخطورة. أو ربما لأن الكلمات القديمة الأصيلة التي لا تحمل على أعناقها نير البطاقات المختومة أعادت لها ذكريات محببة إلى قلبها. أوقفت تدفق المياة فوق رأسها وتدثرت بالمنشفة الكبيرة وعادت لغرفتها من جديد. التفتت للمرآة بحذر، ثم أشاحت بنظرها عنها، لكن فكرة ما طرأت على عقلها جعلتها تعاود النظر للمرآة على غير العادة. وقفت قبالتها وأسقطت المنشفة من فوق جسدها المندي. راحت تتأمل في كل جزء من الصورة المنطبعة فوقها، لفت ذراعيها حول نفسها ومالت برأسها قليلا يمنة ويسرة، وهي تراقب صورتها، كأنها تحاول إقناع نفسها أن تلك الصورة تخصها بشكل ما. اقتربت من المرآة، حدقت في عينيها البنيتين، مرت بأناملها على ملامح وجهها، هل هذه أنا حقا؟ فكرت، ثم راحت تبحث في خزانة الملابس عن شيء ما. حتى أخرجت وشاحها الأرجواني القديم، ربطته فوق رأسها وأسدلت طرفيه على صدرها، ثم بدأت تدور وتدور حول نفسها، كأنها ترقص المولوية، هل كانت تدور بالوشاح أم أن الوشاح هو من كان يدور بها؟ غريب كيف تملك الجمادات تلك السطوة على العقل والذاكرة؟ سطوة التنقيب والبعث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي مكان آخر في شقة صغيرة بالقرب من منطقة الخدمات، كانت هناك مرآة أخرى تراقب شخصا آخر. وقفت نورسين تتأمل نفسها، وتتحسس بطنها المسطح مسترجعة في ذاكرتها طعام الأمس الذي تخطى القدر المعلوم الذي تسمح لنفسها به. سرحت شعرها القصير الذي لم يعد لسابق عهده بعد عام واحد من خروجها من معسكر الإصلاح والتهذيب. صففته وزينته ببعض دبابيس الشعر لتصنع ذلك المظهر الوقور الذي تتعمد الظهور به يوميا في أثناء دوامها الوظيفي، مكملة إياه بالبذلة الرسمية والنظارة ذات الإطار

الأسود العريض، إلا أنها تتعمد كذلك كسر حدة ذاك الوقار بحذاء عالي الكعب، وبمساحيق تجميل صارخة، لم تبدُ يوما ضيفا ثقيلا على وجهها، وإنما كانت تتماهى بلطف مع ملامحه المنمقة، ومع عينيها الزرقاوين الكبيرتين، لتبدي جمالها بوضوح دون أن تعبث بتفاصيله. لطالما كانت تعلم المقادير المضبوطة بدقة لصنع وصفة سحرية تجمع ما بين الوقار والدلال، القوة والميوعة، وإبداء الرفض والتلميح بالقبول. تلك الوصفة التي لم تفشل أبدا في تحقيق ما أرادت لها أن تحققه.

أخرجت صندوق حليها الصغير من خزانة الملابس والتقطت منه سوارها الذهبي على شكل أفعى، هذا الذي أهداها إياه عشيق سابق، أو أسبق، لم تعد تتذكر بدقة بعد رجلها الأول، صاروا جميعا سواسية، كان الصندوق مملوءا ببقايا علاقات قضت نحبها، مجاورة لبقايا علاقات أخرى تنتظر ساعة قضائها في يقين، ولم تكن تلك البقايا سوى أساور ذهبية تتراص متجاورة في الصندوق، لم تقبل يوما أن يهديها أحدهم قلادة أو خاتم أو ما هو أكثر قيمة، ولو أن أحدهم أهداها تاجا مرصعا بالياقوت أو صولجانا ذهبيا لما قبلت به، فقط سوار ذهبي رفيع هو ما اعتادت أن تلقيه في فم صندوقها الكبير المفتوح ليقتات عليه. أغلقت الصندوق، ووضعته على طاولة الزينة بجوار البطاقة التي أهدتها لها ناتالي في عيد مولدها الفائت، بطاقة من بطاقاتها المفضلة

«أنت أجمل من أن يحصل عليكِ رجل واحد»

ربما مثلت لها عزاء أو مواساة أو نهجا جديدا، يمكنها به أن تطمر في عقلها ذكرى سيئة ومؤلمة لا تحتمل استعادتها.

تخطى عداد السرعة حد الـ١٢٠، لم يعوقه طريق مزدحم أو قانون مروري يمسك بلجامه المنفلت، فالسرعة القصوى مسموحة في طرقات القاهرة المتسعة الرائقة، حتى في هذا الوقت الباكر الذي يخرج فيه معظم الناس من بيوتهم لدوام وظيفي أو مدرسة أو لزيارة مراكز البطاقات.

عشر دقائق هي ما يفترض أن تستغرقه نورسين للوصول لمقر عملها بمركز البطاقات الرئيسي، انتقلت فيهم نظراتها الوثابة بين مرآة ترصد الطريق وأخرى ترصد وجهها، كانت سائقة ماهرة بنصف عقل، في حين انشغل النصف الآخر بحاضر ومستقبل تلك المطلة عليها من المرآة، وفي هذا المزيد غير الكافِي رغم كونه لا يكف عن الزيادة منذ فترة ليست باليسيرة. وكيف لا تنشغل اليوم وقد مضت المئة عام التاريخية ولم يتبق منها سوى ثلاثة أيام فقط. يثيرها الموضوع بقدر ما يربكها، فها هو العلاج على وشك الظهور،

ستنطق الألسن وستُبعث الكلمة من تحت الثرى بعد أعواما من الموت. ولكن تُرى... على أي هيئة سَتُبعث؟

وماذا سيكون مستقبل وظيفتها ومستقبل مراكز البطاقات بشكل عام بعد أن يزول المرض ولا يعود الناس بحاجة لمن يتحدث عنهم؟ كان لذلك السؤال مفردا القدرة على تعكير صفو حياتها بشكل كامل، لولا أن «ناتالي» مديرتها ومعلمتها وأمها الروحية كانت قد طمأنتها تماما وأخبرتها أن شخصية متفردة وفعالة مثلها لا يمكن التخلي عنها تحت أي ظرف. هي تعلم هذا على كل حال، لا يمكن أن تتخلى عنها ناتالي أبدا، لقد صنعتها بيديها العاريتين، كيف يمكن لصانع مبدع أن يهجر صنعته بعد أن يبث فيها خلاصة إبداعه وينفخ فيها من روحه؟! مستحيل... لا داعي للقلق إذن، هكذا طمأنت نفسها وواصلت القيادة.

«مصر... مكان جميل للعيش فيه» عبارة خُطت على لافتات كبيرة تقابلك على الطريق أينما ذهبت، عبارة نقشت في عقول المواطنين ونفوسهم، وهنا... في ميدان الحرية المؤدي لمنطقة الخدمات، كتبت العبارة على النصب التذكاري المهيب المتمركز وسط الميدان، كان النصب عبارة عن منحوتة رخامية لمجموعة من الأجساد المتماهية مع بعضها البعض، أحدها لفلاحة بغطاء رأسها الصعيدي وآخر لجندي مع سلاحه وخوذته مع وجه شاب ووجه رضيع ووجه آخر لرجل مسن، كلها متلاصقة متداخلة أجزاؤها كأنها مجموعة تماثيل صهرت في أتون واحد فاندمجت بهذا الشكل، وفي أعلي المنحوته كانت أذرعهم ممتدة على آخرها نحو الأعلى، متشبثة بصارية العلم الذي يرفرف عاليا متعاليا فوقهم بأكثر من تسعة أمتار. هذا هو تمثال «الوطن الجديد»، الذي شيد في الميدان المصبوغ بالدم والغضب، حينما تشربت الأرض الدماء، ونضبت منابع الغضب. شيد التمثال مجاورا للعداد التاريخي، يشهدان على الروح الجديدة التي دبت في أرض الأشباح حولهما، لتخرج الحي من الميت وتطمر الميت تحت أقدام الحي. وضع العداد الضخم ليعد تنازليا منذ مئة عام، لا يبقى على تمامهم سوى ثلاثة أيام فقط!

رواق طويل امتد أمامها منتهيا بالباب الكبير لغرفة الاجتماعات الرئيسية، رواق خالٍ إلا من ذلك الشاب الواقف هناك منتظرا مع حقيبة أوراق جلدية وبطاقة ورقية في يده، وعينين يفيض منهما شوق لاهب لتلك القادمة من بعيد. أبطأت الخطى قليلا حتى توقفت أمامه مباشرة، مصوبة نظرتها الثابتة الحانية المترقبة نحو ملامح وجهه الأليفة، أمسك كفها في حنو ووضع فيها البطاقة التي كانت بصحبته لأكثر من نصف ساعة، حتى وجدت لنفسها أخيرا مكانا في كفيها الصغيرتين. «أحبك... أنتِ نور حياتي»، كتبت الكلمت وسط باقات من الزهور الحمراء مع خلفية باهتة لشاب وفتاة متعانقين. أشرقت

على وجهها ابتسامة كبيرة، انكمشت لها عيناها من فرط السعادة، طبعت قبلة طويلة على وجنة الشاب، أخذت تتأمل وجهه وهي تمرر أناملها فوق قسماته ببطء، ثم استدارت في دلال وأكملت طريقها نحو الباب، بوجة تزينه، ابتسامة أسعد نساء الأرض، ونظرة أوقدهن عشقا. دلفت لغرفة الاجتماعات، وكما توقعت، كان الحضور مكتملا عدا ناتالي التي تأبى إلا أن تكون آخر الحاضرين. كانت الغرفة شديدة الاتساع، باردة لدرجة مبالغ فيها، أضواؤها باهرة كملعب كرة قدم، اصطف الجميع على جانبي طاولة يتجاوز طولها العشرة أمتار، على رأسها مقعد خالٍ وحيد تتصدره بطاقة معدنية محفور عليها اسم ناتالي فروست.

لم تتوجه نورسين مباشرة نحو مقعدها، انحرفت قليلا عن مسارها المعتاد وتوجهت مباشرة نحو أقرب سلة مهملات، وقبل أن تقترب منها تماما، ألقت بطاقة الشاب المزهرة من يدها لتسقط داخل السلة.

«أنت أجمل من أن يحصل عليكِ رجل واحد»

ألقت البطاقة والابتسامة والنظرة المتيمة والوجة المبتهج وسط القمامة، ثم غادرتهم جميعا نحو مقعد نائب رئيس المركز، بوجه جاد متجهم، وجه امرأة لا قلب لها.

ترقت نورسين في عملها مرة أخرى، لم تعد مسؤولة فقط عن تصوير خلفيات البطاقات وتنقيحها، بل صارت من ضمن قلة قليلة مسؤولة عن مزادات البطاقات. كان لنظام العمل في مركز البطاقات قواعد صارمة تجعل من تلك المنظومة العملاقة سلسلة من الغرف المغلقة، لا تعلم كل حلقة منها شيئا عن الحلقات التالية لها. وقبل أن تصل نورسين لذلك المنصب لم تكن تعرف عنه شيئا. ولم يخطر ببالها أن هناك ما يسمى بمزادات البطاقات. تلك المزادات السرية التي يشترك فيها أصحاب الاستثمارت الكبرى لتضمين منتجاتهم في بطاقات الحياة اليومية وبطاقات الرأي. فبدلا من عمل لافتة إعلانية توضع في أحد الشوارع للحث على استخدام المنتج، يتم عمل بطاقات رأي تتضمن عبارات عن هذا المنتج. ويتم تحميلها تلقائيا على الأجهزة اللوحية لأكبر عدد من المواطنين بحيث تدخل ضمن قاموس حياتهم اليومية. وهذا العدد يزيد أو يقل وفقا للمبلغ الذي يقوم المستثمر بدفعه. في أول الأمر تذكرت نورسين الكثير من البطاقات المشابهة التي مرت عليها طوال حياتها، أثارتها الفكرة وألهبت فضولها. أحست أن لها سلطة ما على عقول الآخرين، تتحكم عن بعد في آرائهم وأدق تفاصيل حياتهم اليومية. سلطة تتخطى الأبواب المغلقة والحواجز الشخصية. بل وتتخطى حدود أجساد الناس وعقولهم وتلقى فيهم من البذور ما تشاء، فتنبت بداخلهم أفكارا ومشاعر وآراء ليست لهم، لكنهم لا يعرفون، يظنون أن تلك نبتة

تخصهم لمجرد أنها نمت بداخلهم. لا يعلمون أن حدودهم منتهكة وأقفالهم مكسورة وأراضيهم مستعمرة ممن يملك القدرة على الدفع، وممن يملك السلطة. والآن هي تملك تلك السلطة، وهو أمر رائع، لكنه لم ينسِها السؤال الذي لطالما تردد في عقلها. ترى ما هي البطاقات التي يستخدمها صانعو البطاقات؟ وهل ستتمكن يوما ما من صنع بطاقة؟ هل ستصل يوما ما لوضع يمكنها من رؤية أجهزة الإدخال ولمسها واستخدامها. كان حلما صعب المنال، لكنها فتاة قوية ليس لطموحها حدود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبرت رواق مدرستها ببطء، من بين أناس يضحكون ويتهامسون، على فتاة صلعاء بوجه شاحب محاط بهالة سوداء يصنعها غطاء الرأس خاصتها. لم تنظر في أي عين من الأعين الكثيرة المحدقة. كان وما زال النظر في أعين الآخرين مهارة لا تتمتع بها، من ضمن مهارات اجتماعية كثيرة لم تكترث يوما لامتلاكها. قبل أن تصل، اعتقدت لوهله أن في قلبها شوق ما لفصلها ولأركان مدرستها حيث نمت فيها طفولتها وصباها. وعندما صارت في قلب المدرسة، بحثت في قلبها من جديد فلم تجد شيئا من شوق أو من محبة. ما الذي يمكن أن تتعلمة في تلك العلبة المغلقة. ماذا غير الكليشيهات المتلاحقة بلا نهاية للبطاقات؟ لماذا يوجعها صدرها حينما تتذكر أيام وسنوات قضتها على فرع شجرة، تقرأ الشعر وتغتذى عليه؟ لماذا هذا الحنين الآن لشيء غير موجود، لشيء غير عاقل، بلا روح أو لسان أو خيال؟ لكن خيالها هي، إلام ينتمي؟ كيف زرعت فيه تلك الأفكار المتسلقة التي لا تنفك تكسو جدران عقلها وتتشعب لداخل روحها فتوجعها وتبكيها بغير دموع؟ لماذا تشعر الآن بهذا القدر من الوحدة؟ ألم تكن طوال عمرها وحيدة؟ لماذا شعرت بها الآن فقط، كأنها تبصر صورتها للمرة الأولى في المرآة، فتراها فردا واحدا، على خلفية من فراغ كامل ممتد إلى أقصى الأفق، عارية من أفكار ومشاعر وأحلام حملتها وهدهدتها طفلة، وحلقت بها في الآفاق في مطلع الصبا. والآن ها هي تقف على الأرض بعد سقطة قتالة. ربما قتلت فيها روحها القديمة.

كبست الزر على باب المدير، لم تكن تعلم طريقة أخرى لتعثر عليه غير مكان عمله، لوهلة ساورها بعض القلق، ترى هل يمكن أن يكون قد ترك وظيفته بعد ما حدث، فتحت الباب ودخلت دون أن يؤذن لها، فوجدته جالسا في مكانه كما عهدته دائما. تقدمت نحوه فقام من جلسته، وقفا على ضفتي المكتب، يفصل بينهما هذا الحاجز الخشبي الذي لم يحاول أحدهما تخطيه. مد يده فمدت يدها وتصافحا كغريبين.

«لقد افتقدتك كثيرا»

«هل أنتِ بخير؟»

«أنا بخير، كيف حالك؟»

«أنا بخير، كيف حالك؟»

«أنا أدعوك لحفل عيد ميلاد في منزلي»

لم يكن مضطرا لسؤالها عن صاحب عيد الميلاد، كان يعرف تاريخ اليوم وهو يوم ميلاد أمها.

«قبلت دعوتك»

ترى هل سيخطر له أن يبحث عن نورسين ويحضرها معه؟ ليته يفعل.

وكأن حرارة الغرفة زادت فجأة، ازدردت ريقها بصعوبة ونظرت لأبيها، لم يبد أي علامة على استمرارية حوارهما القصير. نظرت للساعة ثم لوجهه، لجهازه اللوحي ثم للمكتب الخشبي بينهما ثم للساعة من جديد. لا شيء، لم يقل شيئا آخر ولن يقول. الحرارة من جديد تشتعل في وجهها، بلا قطرة عرق واحدة. قامت فقام، مدت يدها فمدها، وتصافحا فوق المكتب الخشبي، ثم رحلت.

عبرت الرواق مرة أخرى، الرواق ذاته وأعين جديدة، تحدق وتضحك. إلى أن غادرته وغادرت المدرسة. إلى أين تذهب؟ هل تعود للمنزل لتصنع كعكة لعيد الميلاد؟ لا... يمكنها أن تشتريها وتوفر ساعات من العمل بالمطبخ ولن يميز أحد الفرق. لم تقرر الذهاب لآدم. فقط تركت قدميها تقودانها فوجدت نفسها أمام باب منزله. الساعة نحو الثانية ظهرا، بالتأكيد لم يستيقظ بعد. فحياته بأكملها تبدأ مع بداية حلول الظلام وتنتهي برحيله. كان يعيش وحده، في منزل قريب يشبه منزلها، ويقوم فيه بعمله وهوايته برسم الوشوم. جلست على عتبة الباب فجاءها الكلب الهاسكي ركضا وأخذ يمسح وجهه بوجهها، ويحاول لعقه، أجلسته أرضا ووضعت رأسه على فخذيها وراحت تمسد شعره الرمادي البديع. ترى هل تسمع الكلاب؟ كانت تتساءل في طفولتها وعرفت الإجابة حينما بدأت بالتصفيق أمام الحيونات وملاحظة ردود أفعالها. كل الحيوانات التي صادفتها في حياتها تسمع. أثارت تلك القدرة حسدها، ترى ماذا تسمع؟ لقد وصفت لها الشجرة صوتا يسمى بالموسيقى. أخبرتها أنه لون من ألوان السحر لا يوصف بالكلمات. ترصده الآذان فتحلق به الأرواح في آفاق قصية، تتحسس كِسَف السحاب وتتزلج على أقواس قزح. سحر تمتزج فيه ألوان الجمال جميعها وتتكثف كروح العطر، فتسكر الحواس بها، وتطرب القلوب. بالتأكيد لم تسمع الحيوانات شيئا مماثلا من قبل. فحتى إن كانت تملك آذانا سليمة، فإن الموسيقى صارت نسيا منسيا حينما توقف الناس عن عزفها.

تشردت في الفراغ ثم انعدمت، تماما كأحاديث الشجرة التي لم تعد موجودة سوى في ذاكرتها المتهمة بالجنون.

جميل هذا الكلب، تحمل عيناه سحرا استثنائيا يخلب الألباب. لولاه لما كانت عرفت آدم أبدا. لكانت الآن وحيدة تماما كظبية ضلت طريقها في صحراء. قامت من جلستها وتحسست مقبض الباب، كان مغلقا، وكانت في أمس الحاجة لشخص يشاطرها تلك اللحظة الموحشة. لكن النوافذ مفتوحة. قفزت من نافذة المطبخ، ودلفت منها للطابق السفلي. كانت الجدران مغطاة بصور لجماجم وقصور مهجورة وذئاب، صور مظلمة تحيط بالمكان الذي يقوم فيه آدم بعمله، أسرة ومقاعد جلدية في المنتصف، وحولها تناثرت كتب ومجلات ملأى بصور الوشوم. صور بلا كلمات، فوشم الكلمات ممنوع تماما ككتابتها على الورق. ولهذا يخضع أي شخص يمتهن تلك المهنة لرقابة مباشرة من الحكومة حتى لا يسيء استخدام أدواته ويستغلها في الكتابة. أمسكت بآلة الوشم، آلة معدنية تشبه المسدس، في مقدمتها مجموعة من الإبر، ومتصلة ببدال موضوع أرضا يستخدم في تحريك جزء دائري في مؤخرتها، ليحرك بدوره الإبر دخولا وخروجا من مكمنها. راقبته من قبل في أثناء وشم أحد الزبائن، ولم تفهم السبب الذي يجعل أحدهم يتكبد هذا الألم في سبيل صنع رسم ما على جسده لا يزول بتقادم الزمن. جلست أرضا وراحت تقلب صفحات مجلة تلو أخرى، بعض الرسوم رديء، وأكثرها جميل ومعقد وشرس. تعاقبت الصفحات حتى تشابهت عليها الرسوم. إلى أن استوقفتها رسمة ما، أخذت تتحسسها وتدقق النظر في تفاصيلها بإعجاب تام. كان رسما لشجرة تتوسط أعلى ظهر فتاة، تتفرع أغصانها الجرداء على ظهرها متخذة شكل جناحين. وللمرة الأولى تفهم السبب الذي يدفع أحدهم لتحمل الألم المصاحب لعملية الرسم على جلده رسما لا يزول. لقد أرادت هذا الوشم، وسوف تحصل عليه اليوم.

لم تستطع الانتظار طويلا حتى يحل المساء. صعدت للطابق العلوي بصحبة المجلة وأيقظت آدم. أشارت إلى الرسم وسحبته من الفراش وانحدرا معا بسرعة للطابق السفلي، فتلك الساعات القليلة المتبقية قبل حفل عيد الميلاد يجب أن تكفي عملية الوشم كاملة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حل المساء. والوشم تم نقله بنجاح من على صفحة المجلة إلى ظهر ليلى. كانت عملية مؤلمة، لكن محتملة، أسرعت بعدها لمحل حلوى قريب وابتاعت منه كعكة مغطاة بالكامل بطبقة صفراء على شكل الوجه الأصفر السعيد، الذي تنطبع أيقونته على أغلب البطاقات. وبعدها أسرعت للمنزل بصحبة آدم للبدء في تحضير المكان لعيد الميلاد. دعته للحضور لكنه اعتذر متحججا

بمواعيد زبائنه التي ستبدأ بعد قليل وستنتهي قبل منتصف الليل، فليكن موعدهم إذن بعد منتصف الليل، بعد أن ينتهي الحفل.

دلفت للمنزل، وضعت الكعكة في منتصف المائدة وراحت تبحث عن أمها، لم تكن في أي من الغرف، إذن لا بد أن تكون في القبو، ورغم كرهها الشديد لهذا المكان، نزلت تبحث عن أمها فيه، لكنها لم تجدها كذلك. شعرت بالذعر، فأين يمكن أن تكون الآن؟

جلست وحيدة إلى الطاولة بصحبة الوجة الأصفر السعيد، حركت إصبعها في الهواء ترسم خطوطا متخيلة لفم ملوي لأسفل علامة على الحزن. ثم أرخت رأسها على الطاولة وراحت في غفوة قصيرة، حتى ارتطم بكتفها شيء ما. كانت أمها عائدة من الخارج بملابس المنزل، تحمل في يدها جوالا قماشيا كبيرا به شيء يتحرك بعنف. فركت ليلى عينيها ونظرت للحقيبة بعبوس ثم لأمها بملابسها المهلهلة وشعرها المتناثر. اقتربت منها قليلا فابتعدت الأم، احتضنت الحقيبة وتوجهت نحو القبو، لحقتها ليلى وفتحت باب القبو، ثم ربتت على الحقيبة وراحت تمسح فوقها حتى هدأ ما بداخلها واطمأن، سحبتها بهدوء وفتحتها ثم وضعتها بسرعة في القبو وأغلقت الباب. احتضنت أمها بقوة، شدت على كفها وصعدت بها للطابق العلوي، وللمرة الأولى تجرأت وفعلت ما أرادت فعله منذ أيام عدة، حممتها، وسرحت لها شعرها الرمادي ورفعته بمشبكين مزينين باللؤلؤ. ساعدتها على اختيار رداء كانت تحب ارتداءه في وقت بعيد. فستان أزرق طويل مفتوح الصدر.

«جميلة» فكرت ليلى، ما زالت جميلة رغم كل شيء. شعرت ببعض الرضا، لم يكن الاعتناء بها صعبا كما توقعت، وسيمكنها القيام بذات الأمر كل يوم إذا سار كل شيء على ما يرام. احتضنتها من جديد، ثم هبطا الدرج معا. أجلستها إلى المائدة وجلست على المقعد المجاور. غرست في الكعكة شمعة على شكل الرقم خمسين. ماذا ستفعل بعد؟ لم تملك أدنى فكرة. فقط تمنت أن يحضر أبوها بأسرع ما يمكن. انتظرتا طويلا، أحضرت ليلى لأمها ماء وعصيرا وبعض الحلوى حتى تلتهي بها عن تأخر الحضور. أشعلت شمعة أخرى وثبتتها على المائدة، وأخذتا تراقبانها وهي تذوب. ثم أشعلت منها شمعة أخرى وراقبتاها حتى ذابت تماما. فتح باب الشقة، ودلف إليها الأب ثم دخلت في إثره نورسين. لم تتحرك الأم من مكانها. في حين قفزت ليلى من على مقعدها وجرت باتجاه نورسين، ارتمت على صدرها فارتطم جهازاهما اللوحيان ببعضهما وهي تحتضنها بقوة، دون أن يتسنى لها ملاحظة أن نورسين كانت واقفة باعتدال مرخية ذراعيها على جانبي جسدها بلا حراك.

تشبثت بها كما كانت تتشبث بفروع الأشجار. لكن نورسين ليست شجرة، وجمودها بين ذراعي أختها الصغيرة لا مبرر له. أفلتتها أخيرا فسارعت الأخرى

بالابتعاد متحاشية أي اتصال بصري يمكن أن يحدث بينهما. تحلق الجميع حول المائدة، التي يتوسطها الوجه الأصفر الضاحك. كل يتحسس جهازه اللوحي دون أن يختار من عليه أي بطاقة. وعلى رأس الطاولة، جلست الأم بعينين شاردتين تخفيان الكثير من الهموم، وتثيران الكثير من الأسئلة بلا إجابة. رفعت نورسين بطاقة ورقية، رسم على خلفيتها أسرة من أربعة أفراد متعانقين، بأفواه ضاحكة ومفتوحة من فرط السعادة. وعليها كتب «عام جديد سعيد يا أجمل أم في العالم»

قرأت الأم العبارة ثم انتقلت ببصرها لوجه نورسين المتجهم، ولعينيها الناضحتين بالغضب. اغرورقت عيناها بالدموع، ثم راحت تقرأ على بقية البطاقات عبارات التهنئة من زوجها ومن ليلى

«كل عام وأنتي بخير يا أعظم أم»

«أحبك يا نور حياتي».

وبعد ثوان انخفضت البطاقات ليعم السكون من جديد. قامت ليلى وأشعلت الشمعة، ثم أطفأت الأنوار، وقفت بجوار أمها ولفتها بذراعها ثم انحنت نحو الكعكة وأطفأت الشعلة الصغيرة المتراقصة فوقها. وتمنت أمنية وحيدة، أن ينتهي هذا الحفل بأسرع ما يمكن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مكان آخر منسي، جلست ليلى وآدم، يحفهما ظلام كثيف فيما عدا مصابيح سيارته المضاءة بأقصى طاقتها، لم يكن من الممكن بلوغ تلك النقطة بألواح وأحذية التزلج، كان لا بد أن يستقلا السيارة ويصعدا بها إلى جبل المقطم حتى يصلا لهذا الموضع العبقري المهجور. أحضر من السيارة بطارية إنارة وراح يضيء بها الجدران الصخرية. يمسح على الجدران بكفه فتتساقط طبقات من التراب المتراكم عبر عشرات الأعوام، كاشفة عن رسوم ملونة جميلة. «ترى ما هذه الرسوم؟» تساءلت ولم يكن لها أن تعرف أنها في قلب دير الأنبا سمعان المحفور في صدر الجبل. كل الأديرة والكنائس والمساجد حوطت بالأشرطة الصفراء ولم يعد أحد يتساءل حتى عن سبب وجودها، نسيان في طي نسيان، بيانات زائدة لا تعبر حدود الوعي والبصر. جلست على أحد المقاعد الخشبية، أغمضت عينيها وأطفأت عقلها وذابت في نسمات الهواء البارد، كأنه يرحب بها في ذاك المكان الجديد، يصافحها ويحتضنها ويطيرها على ظهره الشفاف. هي لم تعانق أحدا من قبل، كانت المرة الأولى حينما ضمت إليها نورسين ورفضتها بوضوح غير قابل للتأويل. أين ذهبت نورسين، إنها حتى لم تعد تشبه نفسها، بشعرها المصبوغ الأسود القصير ونظارتها العريضة، ونظراتها التي كانت توزع على الحاضرين أقساطا

متساوية من الكراهية. نزعت من فوق رقبتها جهازها اللوحي، فلا حاجة لها به هنا، فرأت آدم وهو يفعل مثلها تماما، جلس بجوارها وأحاطها بذراعه، فاستكانت واستسلمت له تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لن تستطيعي أن تجدي الشمس في غرفة مغلقة»

هكذا قالت الشجرة! ولسبب ما تذكَرَت قولها عندما نَظَرَت للنافذة الموصدة. يبدو أن الصباح قد بدأ على غفلة منها، فبقع النور الصغيرة المتسللة من شقوق النافذة والمنطبعة على الأرض، متوهجة وقوية. لماذا لم توقظها أمها إذن؟

دفعت بيدها الضلفة المغلقة، ووقفت قليلا تستنشق عبير الصباح البكر بشراهة، متأملة جذع الشجرة المقطوعة في الأسفل، والتي دهنت بلون برتقالي سخيف وزينت بالمسامير النحاسية لتصير مقعدا يتوسط حديقة المنزل. لونه الفسفوري الفاقع لا يسمح لعينيها بتجاهله رغم محاولتها. لتصير بقايا صديقتها القديمة تؤذي نظرها ووعيها باستمرار. وتمد يدها لتعبث بذكرياتها وتبعثها من بعد رقاد طويل. لقد كان الشجر هو موطنها الأول. المكان الوحيد الذي شعرت بروح حية تسكنه. إلا أن العام الذي قضته بمعسكر الإصلاح والتهذيب كان كفيلا بتشويه ثقتها بحكمها على الأشياء وإحساسها بها، فالشجر لا يتحدث ولا يكتب الشعر، الشجر لا يربط على فروعه الهديا والحلوى للأطفال، حتى تمحو حلاوته ما بهم من مرارة الوحدة. تلك أشياء لا يفعلها الشجر... ولا البشر كذلك.

ازدادت الشمس حدة، لتقتلع وعيها من ذكريات مر عليها أكثر من عشر سنوات حينما كانت في السادسة من عمرها. لماذا لم توقظها أمها إلى الآن؟

تساءلت في قلق، فتشت عن جهازها اللوحي الغارق في فوضى الغرفة ثم غادرتها.

راحت تمشط أرجاء المنزل بحثا عن أمها فلم تجدها، فدخلت القبو على مضض، حيث الحيوانات المحنطة المحاطة بالظلام، في ذلك المكان الذي يحمل بداخله عددا مرعبا من النهايات. شقت طريقها للأسفل. تحاول أن تتجنب النظرات البلاستيكية الميتة، تبحث عن نظرة واحدة حية. لكن بحثها كان بلا جدوى. لقد نضح الموت من كل شيء، هاجم كل شيء، أطاح بكل شيء. فلملمت الروح الأخيرة أشياءها ورحلت تاركة جسدا معلقا بحبل غليظ في سقف القبو. فستان أزرق يترنح يمنة ويسرة كالبندول، ووجه مرتخٍ أسقط آخر قطرة فيه من حياة.

وهناك، جدار مكتوب عليه بالدم بخط مرتعش ومائل إلى أسفل

«لن تُبعث الكلمات فرادى

بل سيبعث كل الأموات مجتمعين

ليقتص القتلى من القتلة

وتقتص الكلمة من الصامتين»

ها هي تسقط فوق الأرض الرطبة، توشك أن تتسرب آخر قطرة وعي من إناء رأسها المهشم، تقرأ الأبيات العجيبة وهي تهوي في بئر مظلمة، بصدر يكاد ينفجر من الألم ومعدة تكاد تنفجر من الإعياء، وقلب لا يكاد يحتمل هذا الأسى، غابت عن الوعي تماما، وبقيت الجدران الرطبة شاهدة على تلك الأجساد المتناثرة بين حي وميت وبين بين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك الرائحة... مزيج من الأعشاب العطرية والتفسخ، لم تغادر أنفها، وتلك الصور لأجساد ميتة في كل مكان وعلى رأسهم جسد يتدلى من السقف، لم تغادر مخيلتها، أينما تولي وجهها تراها. وإن أغمضت عينيها ترى الأعين الميتة تحدق فيها من كل زاوية. «لماذا يا أمي؟» فكرت ثم غابت عن الوعي من جديد. تركض في طرقات مظلمة، وحولها كلاب تعوي بلا صوت تلاحقها وتلهث خلفها وتركض هي حتى يوشك قلبها على التوقف. تسقط أرضا، تنظر خلفها فترى الكلاب يأكلون واحدا منهم. الهاسكي. يتنازعون على أشلائه ويلوكونها في أفواههم بنهم، كضباع تأكل قردا عجوزا بلحية بيضاء. تزحف مبتعدة عنهم فتستحيل الأرض حولها وحلا أسود، تغوص فيه ويغطي أنفها فتعجز عن التنفس، تشهق محاولة إدخال بعضا من الهواء لرئتيها فتستيقظ في فراش منزلها وتبصر قليلا مما حولها. أبوها هنا، أين نورسين؟

منزل قديم في المنطقة الأثرية المهجورة، ممتلئ بوطاويط مسعورة تتقاطر من أفواهها الدماء. تصيح بلا صوت، تتجمع حول جسد واحد ثم تنفض من حوله فيخرج من وسطها شاب أمهق بوجه أبيض وعينين حمراوين. يتكلم بلا صوت، تحوم حولها الوطاويط فتحول بينها وبين رؤية ما حولها، يمسك الأمهق بكتفها من الخلف فتستيقظ في غرفتها مرة أخرى. آدم هنا، يربت على كتفها، «اتركني»

تغوص في الوحل من جديد، هل هذا وحل أم بقايا أموات؟ وحل مدمم قوامه كالقيء ورائحته كالنتن العضوي الممزوج بالأعشاب العطرية «نورسين» ها هي تقف بعيدا، تغالب الوحل وتركض نحوها فتسقط أرضا على وجهها، تلف

جسدها فتجدها متخشبة بعينين من البلاستيك «أمي هل حنطتي نورسين؟». «أمي أين نورسين؟». «أين أنتِ؟». تستيقظ، تتقيأ ثم تغيب من جديد.

«لن تبعث الكلمات فرادى

بل سيبعث كل الأموات مجتمعين

ليقتص القتلى من القتلة

وتقتص الكلمة من الصامتين»

«ما هذه الأبيات الملعونة؟» صاحت القرود في القفص وقهقهت ضاحكة وهي تقول «أمك لا تكتب الشعر، أمك تحنط الحيوانات» بكت وتشنج فكها السفلي «أنا أسمع ما تقولون لكني لا أستطيع تحريك فكي»، فُتح فمها على آخره وتشنج تماما فلم تعد تستطيع غلقه أو تحريكه يداها ثابتتان بجوارها لا تتحركان. «ما هذا الظلام؟ هل مت؟ هل أنا ميتة الآن» صاحت القرود من جديد «أجل لقد متِ ثم بُعثتِ من غائط الضبع» وراحت تقهقه من جديد.

استيقظت في غرفتها، عيناها مفتوحتان، وجسدها لا يخضع لأمرتها، لا يمكنها تحريك أي جزء فيه، وفكها كالمخدر. «ليلى، لماذا لا تموتين الآن؟» هل كتب هذا على الحائط فعلا؟ تذوب الحروف من على الحائط وتتلاشى ويظهر أمامها وجه أبيها، أو آدم، كأنه جسد واحد برأسين، يقترب الرأسان من وجهها ويقبلانها ثم يبتعدان عنها فلا ترى أمامها سوى الأمهق. «سلطان الوطاويط» ثم تغيب عن الوعي وتغرق أخيرا في الظلام الكامل حيث لا أحلام ولا كوابيس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختلس لحظات قليلة ينفرد فيها بنفسه، بعيدا عن زحام المعزين، والبطاقات، والكلمات الجوفاء سابقة التجهيز. وقفت الدموع على حافتي مقلتيه بحياء. وعندما لم تبصر أحدا يرى، سالت بجموح نحو الأرض، حيث تؤول كل الأشياء. لم يستطع الجلوس على الفراش. ما زال يحمل رائحتها، رائحة عرقها، وأدويتها، بقع من القهوة والدماء والعرق، نقشت على الفراش فصار بشكل ما قطعة منها. قطعة من حزنها ومن موتها الرهيب. ليته كان يحمل ذكرى أجمل تهون عليه رحيلها.

فتح النافذة، وأخرج نصف جسده الأعلى منه عله يغتسل بنسيم المساء من بؤس الذاكرة. الذاكرة المفترسة التي تتفنن في إيلامه بلا رحمة. لماذا ترك المنزل؟ لماذا لم يحتملها ويعينها على معركتها الصامتة التي خاضتها بمنتهى الوحدة والجنون؟ لماذا لم يكن وتدا صلبا يحمي زوجته وابنتيه من السقوط؟ انتظر عودة ليلى للمنزل بفارغ الصبر حتى يلقي على كتفيها الواهنين عبء

أمها ويسرع بالفرار، نحو حياة بلا جنون وبلا معتقلات، وبلا جثث محنطة. حيث لا عقاقير ولا موت، ولا عائلة! فهل تحقق له ما أراد؟ هل كان يمكن لوجوده أن يصنع فارقا ويحول دون موتها؟ فلتهتك الآن كل الحجب بين عينيه ودخيلة نفسه ليرى السؤال اللعين الذي يطوف في أعماقه ككتلة شوك متوحشة، ها هو يطفو على السطح ويغطي بظلامه كل منفذ للنور. هل... هل كان يتمنى موتها؟!

انهمرت الدموع من وجهه المعلق في الظلام خارج النافذة. سقطت على تربة الحديقة، فتشربتها بنهم لتحفظ في باطنها ذكرى ليلة شاقة ووجيعة. وما يحفظ في باطن الأرض لا يموت أبدا.

أغلق النافذة بعد برهة، دلف للحمام وتوضأ، للمرة الأولى منذ أكثر من أربعين عاما. لم يكن يتذكر خطوات الوضوء بأكملها ولا بترتيبها الصحيح. لكنه يحتاج لهذا الغسل الإلهي في تلك اللحظة المظلمة. يحتاج أن يقف بين يدي اللـه ويسجد مقتبلا قبلته. اللـه، لطالما فكر فيه طفلا، وعندما صار صبيا، استعاض عن هذا التفكير فيه بالبطاقات القليلة التي تعلم الناس معلومات شحيحه عن دينهم. وحينما صار شابا، انقطعت البطاقات، فانتهت علاقته بربه بالكلية. كيف يمكن أن ينساه طوال أربعين عاما كاملة ويتذكره الآن بهذا الشوق وبتلك الحرقة. ها هو في غرفته من جديد، يستدعي ذكرى قديمة لطفل يصلي. يتذكر سجادة الصلاة ويخبر نفسه بأنه لا يملك واحدة، بل إنه لا يعلم اتجاه القبلة في بيته. وقف قبالة النافذة المفتوحة، وبدأ في الصلاة. الهواء البارد يلفح وجهه، وروحة. ينبه فيه مناطق للإحساس لم يكن يدري بوجودها. يسجد فيحس نفسه يغوص في الأرض، تحتضنه وتربت على ظهره بترابها، تحوطه وتغطيه وتدفئه، ويقوم مكبرا مغمضا عينيه فيشعر بنفسه طائرا في فضاء سرمدي ذي ظلام بديع حنون، وسكون عميق مطمئن. لم يعد يشعر بدموعه، ولا بتقلصات وجهه، ولا بالأرض تحت قدميه، كان مغمورا في السكون. يتلو ما يتذكر من آيات ويتوقف حينما ينطق «اللـه»، يكررها في سجوده، لا يدعو بشيء ولا يتمنى شيئا. فقط يردد اسم ربه العطوف ذي الرحمة، فيطغى حضور ذكره على كل ما سواه. يخفق قلبه القديم، قلب الطفل الذي عرف ربه قبل معرفة البطاقات، يستشعر نفس راحته والاستئناس به والنشوة بذكره، فتمتلئ الفجوة المدماة بقلبه، وتسكن روحه قليلا من بعد ذعر وعناء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم واحد مر على الحادثة، ويوم واحد متبقٍ على بداية العهد الجديد. الحياة والموت لطالما كانا متلازمين ومتعاقبين كتعاقب الليل والنهار. ستدفن القتيلة، وقبل أن يألف الجسد الميت مثواه الجديد، ستبعث الكلمات من

مرقدها. هل كان تعاقب التوقيتين مجرد مصادفة، أم أن بعض الحيوات لا ينبغي لها أن تجتمع على أرض واحدة؟!

أقيم العزاء في المنزل، توافد المعارف والجيران على المكان في الموعد المحدد بعد غروب الشمس، صفت المقاعد والأرائك صفوفا ملاصقة للجدران وأمامها طاولات صغيرة عليها زجاجات المياة وصواني القهوة. بعض نساء الجيران تكفلن بخدمة الحضور، فالابنة الصغرى رقيدة الفراش في الطابق العلوي، والكبرى لم يتسنى لها المجيء بسبب ضغط العمل في تلك الليلة الهامة، أو لأسباب أخرى! وزوج الفقيدة، لا يفتأ يصعد للاطمئنان على ليلى حتى ينزل ويستقبل الوافدين على بوابة المنزل تاركا آدم في الطابق العلوي يحرس نوم الفتاة المتقطع الكئيب. غربت الشمس وحل الليل بتؤدة. وعلى العداد المنتصب في قلب القاهرة، لم يتبق سوى الرقم واحد. ومع حلول الظلام، بدأ ظلام أحلام ليلى ينقشع تدريجيا. عادت لوعيها وخرجت من كابوس إلى كابوس أكبر. قلبها مفعم بالبؤس وعقلها متخم بالأسئلة. كيف لها أن تتحرر من كل هذا الوحل المحيط بروحها دون أن تتكلم، أن تكتب. «لماذا يا أمي؟» لم يبرح السؤال ذاته عقلها. هل كانت تقدر على حمايتها من نفسها إن بذلت جهدا أكبر في ملاحظتها والعناية بها؟ هل كان يمكن أن تسير الأمور بشكل مختلف إن كانت هي مختلفة؟ هل قصرت في رعايتها وتسببت بشكل أو بآخر في قتلها؟ أسئلة قاسية، توجع القلب وتجلد الروح. ولا أحد يقدر على الإجابة أو حتى مشاطرتها ما يجول في رأسها. كان آدم موجود وقت استيقاظها، احتضنها وربت على كتفيها، وضع جهازه اللوحي أمامها

«الحمد للـه على سلامتك»

«لقد قلقت عليك كثيرا»

«هل أنت بخير الآن»

لا، ليس هذا ما تحتاجه الآن، ليست تلك الكلمات المعلبة، ولا حتى ذلك الحضن البارد، كانت تحتاج أكثر، أن تبكي ربما، أو أن تصرخ، أن تسأل وتعرف، أن تكتب وتُقرأ، أن تتكلم ويُصغى إليها. كان وجود آدم ضبابيا كشبح، أثره كريشة على كفة ميزان، ريشة جميلة وحنونة لكن لا وزن لها ولا أثر. ساعدها على النهوض من الفراش، التقطت من خزانة ملابسها رداء ما ودلفت للحمام. اغتسلت وبدلت ملابسها ثم خرجت وعلقت جهازها اللوحي على صدرها وهبطت الدرج. وفي الأسفل، تلقفها الحاضرون ككرة في ملعب، انتقلت من حضن لآخر لأناس لا تعرف معظمهم، رائحة العطور المبالغ فيها اختلطت مع رائحة العرق وملأت أنفها فاستثارت رغبتها في التقيؤ من جديد. وعلى الأجهزة اللوحية تتابعت بطاقات العزاء والمواساة.

«البقية في حياتك يا عزيزتي»

«كانت الفقيدة أطيب إنسانة رأيتها في حياتي»

وجوه لم تتطهر بعد من ضحكات وابتسامات مختلسة، تحاول إخفاءها تحت نظرة شفقة وحزن غاية في الركاكة

«أشعر بحزن شديد بسبب ما حدث»

«كانت الفقيدة أطيب إنسانة رأيتها في حياتي»

«أشعر بحزن شديد بسبب ما حدث»

«البقية في حياتك يا عزيزتي»

وفي الأركان البعيدة عن مركز الإضاءة، كانت بطاقات أخرى تظهر تباعا في حوارات جانبية تتولد شيئا فشيئا من أناس ملوا ادِّعاء الحزن

«العلاج سيظهر غدا، ربنا يستر»

«أخاف من تكرار الفوضى التي حدثت من قبل في البلاد مع ظهور العلاج»

«أنا لا أفهم ما فائدة العلاج، نحن لا ينقصنا شيء من دونه»

«أخاف من تكرار الفوضى التي حدثت في البلاد من قبل مع ظهور العلاج»

«هل رأيتِ جهازي الآيفون الجديد؟»

«جهاز الآيفون الجديد هو أفضل جهاز في العالم الآن، أنا أحبه»

«أنا لا أفهم ما فائدة العلاج، نحن لا ينقصنا شيء من دونه»

«بعض الشباب الطائش متحمس بشكل مبالغ فيه لظهور العلاج»

«هل جربتم مجموعة العناية بالبشرة الجديدة من لو كاميل؟ إنها رائعة»

أُجلست على مقعد محشور وسط امرأتين، فقامت وجلست على آخر بجوار النافذة، علها تتنشق بعض الهواء النقي الخالي من رائحة البشر. الابتسامات تتساقط أمام حضورها الكئيب، وتترك وجوها حائرة بين مقاومة الملل بالضحكات، وادِّعاء الحزن بالوجوم. رائحة القهوة تحوم في المكان، تغطي على روائح الجالسين. والستائر الشفافة تتطاير مبتعدة عن النوافذ. ربما عليها الخروج من هناك، سيكون الخارج أفضل بالتأكيد، هكذا فكرت. «أين آدم» في مكان ما لا يهم. انسلت من بين الحضور ودلفت للمطبخ، ثم تسللت منه للحديقة الخلفية. وأخيرا وجدت نفسها خارج الدائرة المغلقة المرسومة حول جدران المنزل. خارج المكان الضيق الممتلئ بالموت والحزن وبأناس لا

يملكون لمواساتها سبيلا. سارت بخطوات بطيئة لم تنفك تسرع ثم تسرع، حتى راحت تركض بأقصى ما تستطيع. قطعت عدة مربعات سكنية بأقصى سرعتها إلى أن توقفت وانخرطت في نوبة من السعال العنيف. الآن هي بعيدة ووحيدة، وحيدة تماما، لا وجهة لها ولا طريق للخلاص من الثقل الرابض فوق روحها. أين يمكن أن تذهب، وكيف لها أن تتخلص من هذا الألم، كيف تقتل كل الأسئلة التي تنبت في عقلها كالشوك كل دقيقة، فتدميه وتشوهه. «لماذا يا أمي؟ لماذا؟» حاولت الركض من جديد فلم تستطع. لكنها واصلت الابتعاد. تتنقل من طريق مظلم إلى آخر، وفي وسط الظلام كان شخص ما يتبعها، بوجه أبيض وشعر أبيض وملابس سوداء بغطاء رأس كبير. لمحته بطرف عينها ولم تكترث له، ليس الآن. واصلت المسير نحو وجهة لا تعلمها. قادتها قدماها إلى كوبري قصر النيل، نظرت للمياه بالأسفل، معتمة سوداء كأنها العدم، وللحظة تمنت أن تصير جزءا من هذا العدم، في تلك اللحظة التي تشبه النهايات أكثر من أي شيء آخر. بل إنها لا تصلح أن تكون غير ذلك. فالثقل على روحها أوشك أن يزهقها، والضباب يحيط بكل شيء. وهي لا تفهم، فقط تشعر، بالثقل والوجع والرغبة في الهروب أو في الانمحاء. لم تتلفت حولها، تسلقت السور، وقفت على الحافة الخارجية وأمسكت القضيب الحديدي بيديها. دفعت جسدها للأمام مبتعدة عن السور إلى أن شدت ذراعيها على آخرهما. الموت، أحست بحنين جارف للموت. كأنه صديق قديم أو حبيب حنون طال غيابه. وكأن القضبان الحديدية خلفها صارت حدا فاصلا بينها وبين العالم، يسد كل الطرق ويعيق عبورها اليها، فيصير الطريق المظلم إلى أسفل هو الخيار الوحيد. كأنها النهاية الحتمية لسقوطها المستمر منذ وقت طويل، فيصير قفزها الآن مجرد مواصلة للسقوط، وإتمام له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث: القتل

«أن أحلم بشعرٍ أفكاره سامقة
ونقي كمثل إيقاع صلاة!
أن أتجاهل القلب فأصير غبارا،
أو لا شيء، أو حلم لحظة يدوم
من في وسعه أن يجد بيت الشعر
الصافي،
البيت الأنوف والقوي،
الغريب والقاسي،
الذي قد يعبر عند البكاء
عن هذا الذي أحس به؟»
فلوربيلا إسبانكا

أغمضت عينيها، وأرخت أصابعها من على القضبان الحديدية، استشعرت نسمات الهواء الباردة تلامس وجهها، صار النسيم والظلام يلفان جسدها ويتخللانه، يحملانها إلى مكان ما، حيث اللاوجود، والعدم مكتمل العتمة. استسلمت لهما، وأفلتت القضبان تماما، ألقت بنفسها بالكلية في ذلك الشعور الغامر بالانمحاء التام. امتلأت بنشوة النهاية وأوشك جسدها على التهاوي إلى أسفل.

لكن شيء ما منعها، ذراعان قويتان لفا جسدها وسحبتاها من تلك السكرة الضبابية. حُمل جسدها إلى داخل السور وتهاوى أرضا فوق جسد حاملها، ثم تدحرجا معا على الأرض الإسفلتية الباردة. لم تكن في كامل وعيها، لكنها رأت وجها أمهق تعرفه جيدا يطفو فوقها، ويحدق فيها، دفعته وحاولت الإفلات منه، لكنه طوقها مرة أخرى بذراعيه وابتعد بها عن السور. قاومته بضراوة، لم يكن جسده النحيل يفوقها قوة بقدر كبير، لكنها كانت منهكة وهو كان مصمم على ما يفعل، حملها فوق كتفه بصعوبة، وحاول بكل ما يملك من قوة السيطرة على جسدها الذي لا يكف عن الحركة وإبقاءه ثابتا في مكانه. أسرع الخطى عائدا إلى منزلها، ومن طريق إلى طريق، صار جسما منهكا يحمل آخر أكثر إنهاكا، لكنه تمكن في النهاية من الوصول. هل يضغط على الزر المضيء على

الباب، لن ينتبه أحد له الآن. توجه نحو النافذة، وضرب الزجاج بقبضة يده فتساقط هشيمه أرضا، ونزت الدماء من جلده ناصع البياض. أخذ يسقط ما تبقى من قطع الزجاج، ثم أفلت ليلى أخيرا ووضعها أرضا، قامت وانهالت عليه ضربا، فأمسك يديها وثبتهما خلفها، وبصعوبة، حملها مرة أخرى وحشر جسدها في النافذة، ثم دخل هو الآخر. كادت تفقد قدرتها على المقاومة، لم يعد لديها أي طاقة يمكنها بها أن تتساءل، من هذا وماذا يريد؟ كان عقلها متشنجا في وضع واحد، كشاشة متوقفة على نفس الصورة لا تتغير. الماء المظلم أسفل الجسر. قادها من جديد وألقاها على الأريكة بغرفة المكتب، حاول أن يثبتها لكنها قاومته، وفي غرفة الاستقبال في الخارج، كان زحام الحضور يقل شيئا فشيئا، ورغم هذا لم يلحظ أحد الضوء الوامض المنذر باقتحام المنزل إلا بعد برهة. كان آدم هو أول من لاحظه، جذب الأب من ذراعه وأشار تجاه الضوء فأصابه قلق أقرب إلى الذعر. فراحا يمشطان المنزل معا.

وعلى الأريكة في غرفة المكتب، كانت مستمرة في المقاومة، بعينين مغلقتين وجسد متشنج، لكن رائحة ما انسلت لأنفها، وراحت تعبث في الظلام المنطبع على عقلها، وتمحوه شيئا فشيئا، لتظهر من تحته رسالة وبضعة حروف، كانت رائحة العود التي امتلأت بها رسائلها القديمة، تلك التي لا يمكن لذاكرتها أن تخطئها أبدا. ذاكرة الأنف لا تخطئ ولا تضل. فتحت عيناها، فأبصرت نفس الوجه، لكنه بدا بشكل مغاير للمرة الأولى.

اقتحم آدم والأب الغرفة، فوجدا ليلى مستلقية على الأريكة، فوقها الأمهق، محكما قبضته على كفيها والدماء تسيل من بين أيديهم، دماءه كانت أم دماءها؟ لم يفكرا كثيرا قبل أن يندفعا باتجاههما، لكمه آدم في وجهه فأرداه أرضا، ووقف الأب مشدوها محملقا للدماء المنطبعة على ذراعي ليلى وملابسها «ماذا فعل هذا الوغد؟» فكر، ولم يجرؤ على التفكير بإجابة مناسبة. لم يلكمه آدم لكمة واحدة ولا اثنتين، بل انهال عليه ضربا حتى فقد الوعي، وصارت الدماء تنز من أنفه وجبهته مثلما نزت من قبل من قبضته. قام آدم من فوقه وراح يدور في الغرفة كثور، لكن ليلى حملقت فيه بفزع وفي الجسد الأبيض الهزيل الملقى أرضا ولم تره كثور، بل كضبع بجوار قرد عجوز بلحية بيضاء. هل تبكي الآن؟ لا لن تفعل. لكن الفتاة الصغيرة بداخلها تصرخ لا تبكي، لا تدري فيم تفكر، «يا إلهي ما تلك الرائحة؟» رائحة العود تملأ أنفها وتستدعي معها آلاف الكلمات والصور الملونة في لحظة رمادية لا لون لها ولا مذاق. «صغيرتي ليلى» ترددت الكلمة في عقلها بلا انقطاع.

ضغط آدم على زر استدعاء الشرطة، ثم راح يبحث عن حبل حتى عثر على واحدا في مكان ما بالمطبخ، فأتى به وكبل يديه وقدميه إلى قدم المكتب.

وعلى الباب وقف الحضور المتبقون مشدوهين لا يصدقون ما يروا. ماذا يحدث؟ ولمن هذه الدماء؟ لكن أحدهم لم يتجرأ على دخول الغرفة، انسحب الواحد بعد الآخر حتى فرغ المنزل منهم تماما. فأيا كان ما يحدث فالأمر لا يخصهم في شيء ولا يملك أيهم يدا للمساعدة فيه. اقترب الأب من ليلى، جلس بجوارها لا يعلم ماذا يمكن أن يفعل. اقترب أدهم وحوطها بذراعيه فدفعته بعيدا وركضت نحو غرفتها. دست نفسها في الفراش وتظاهرت بالنوم. وبعد سويعات قليلة كان الجميع نائمون، الأب في غرفته وآدم والأمهق في غرفة المكتب. أربع ساعات مرت على استدعاء الشرطة، ولم يأت أحد. «غريب» فكرت ليلى. ثم تسللت من باب المنزل وراحت تركض من جديد في اتجاه المنطقة الأثرية المهملة.

الساعة الثالثة فجرا، لا يزال الظلام محله لم يبرح صفحة السماء، والناس نائمون على مضض، يحلمون بما سوف يحدث في اليوم التالي. وفي وسط المدينة، في ميدان الحرية، بجوار التمثال العملاق وصارية العلم، عداد لفظ أنفاسه الأخيرة، وعلت شاشته أصفار خمسة. أسئلة كثيرة، نام سكان المدينة الصامتة وهم يرددونها. ماذا سوف يحدث غدا؟ هل سيظهر العلاج المنتظر ويتمكن الناس ببساطة من الكلام؟ ماذا سيقولون؟ هل سيكون العلاج ذا نفع حقا؟ وهل سيضيف شيئا لحياتهم؟ أما آدم فأسئلة أخرى سيطرت على عقله. لماذا فعل هذا السافل ما فعل؟ وكيف لم تحضر الشرطة إلى الآن. وليلى، تلهث في شوارع المدينة الفارغة. تتزاحم في رأسها الأفكار والكلمات وعلامات الاستفهام. تتزاحم وتتعارك ويحجب بعضها بعضا. لن تتوقف الآن، عليها أن تصل للمنزل المهجور حيث البئر واللوحات العجيبة، والحديقة الخضراء الواقعة في قلب الفراغ الرمادي.

تخطت الجدار الكبير للجامع وتوجهت نحو المنزل، ارتمت على عتبته تحاول استجماع أنفاسها بعد تلك المسافة الطويلة التي قطعتها ركضا. تكورت على نفسها أرضا، حاولت استعادة تلك الرائحة ولم تستطع. والأسئلة، لماذا الآن؟ لماذا ظهرت علامات الاستفهام تلك الآن، لتعلقها على طرف الحياة بعد أن كانت أفلتت قبضتها من عليها وقررت السقوط؟!

دفعت الباب ففتح، ببساطة، كأن صاحبة لا يتوقع أن يقتحم منزله أحد، أم أنه تعمد تركه مفتوحا لأنه يتوقع شخصا بعينه؟

لم تكن ليلة قمرية كسابقتها، كان الظلام يحف كل شيء حولها. بحثت عن مصابيح للإنارة فلم تجد، راحت تتحسس الجدران وأسطح الطاولات والمقاعد حولها، بالتأكيد يوجد وسيلة لإضاءة المكان، فكرت، لكنها لم تتمكن من العثور عليها، سوف تنتظر الصباح إذن رغما عنها، استلقت أرضا، وراحت في سبات عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الساعات الأولى للصباح، بدأ الناس يتجمعون في الميدان حول العداد، يتأملون الأصفار على الشاشة بترقب وفرح ممزوج بالرهبة، ماذا سيحدث الآن؟ لم يكن موعد الدوام الوظيفي قد آن بعد، إلا أن الكثير قرروا أنهم لن يذهبوا للعمل، البعض أحضر قهوته الصباحية وراح يرتشفها على حافة الرصيف، وآخرون أحضروا أطفالهم والتقطوا لأنفسهم الصور بجوار العداد الخالي إلا من أصفاره الخمسة. مجموعات تفترش الأرض وأخرى تجلس فوق السيارات، أطفال يلعبون وآخرون يتسلقون النصب التذكاري وقلة قليلة تقف بتوجس، تتلفت حولها، وتراقب أجهزتها اللوحية، منتظرة أي بطاقة إخبارية أو بطاقة رأي جديدة تخص الحدث الكبير. هؤلاء هم من يدركون طبيعة أيام كتلك، أيام لا يعود العالم بعدها كسابق عهده، أيام سيذكرها التاريخ وتسجل في سجلات البشرية بخطوط عريضة.

وفي المنزل القديم، تسللت أشعة الشمس بهدوء من بين فتحات النوافذ المصنوعة من منمنمات الأرابيسك الخشبي. أيقظتها بحنو. قامت، فركت عينيها واستغرقت ثواني قليلة لتستعيد ذكرى ما حدث بالأمس. عليها أن تبحث عن شيء ما لا تعرف ما هو، لكنها ستعرفه ما إن تجده. دخلت للغرفة المجاورة حيث البئر، ثم صعدت الدرج وفتشت غرفة بعد أخرى، كان لكل حجرة طابعها الخاص. أثاث ترك عليه الزمن علامات قدم وجمال أثري، أسقف مزخرفة ولوحات زيتية لأشخاص ولآيات قرآنية. وفي غرفة منهم، عثرت على ملابس، وزوجين من الأحذية، بعض أدوات الحلاقة وبعض العطور الرجالية. عطور منزلية الصنع في زجاجات قديمة برائحة العود. بالتأكيد هي أشياؤه، لكنها ليست ما تبحث عنه. هبطت الدرج من جديد، لم يعد هناك مكان في المنزل لم تفتشه سوى مكان واحد، البئر. بئر سلطان الوطاويط كما تقول المخطوطات القديمة. في ركن الغرفة كان هناك حبل غليظ معقود عددا من العقد. ثبتته بالحلقة المعدنية الموجودة على حافة البئر، ثم نزلت عليه إلى أسفل. كان المكان مظلما، فصعدت تبحث عن شيء ما ينير لها المكان، وفي ركن آخر من الغرفة كان هناك مصباح صغير، أمسكته بأسنانها ونزلت من جديد. وعندما وصلت لقاع البئر، لم يكن هناك سلطانا ولا أسرة ذهبية سبعة. ورغم ذلك ارتجف قلبها واغرورقت عيناها بدموع حارة كثيفة، ملتصقة بمقلتيها كالشمع المذاب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على مكتبها البيضاوي الكبير، جلست ناتالي تحدق في الساعة، ثم تنتقل ببصرها لورقة الروزنامة أمامها. مصادفة غريبة جمعت بين تاريخي يومين لا يمكن نسيانهما. ما زالت تذكر هذا اليوم منذ عشرات الأعوام، عندما تلقت الرسالة بمرضِ أختها التوأم الوحيدة ومشارفتها على الموت. تذكر زيارتها

التي جاءت متأخرة عن موتها بيوم أو أكثر، البيت ذا الإضاءة الخافتة والأجساد المتعرية هنا وهناك في كل ركن، على وسائد ملقاة أرضا وأسرة تحيطها ستائر شفافة تظهر أكثر مما تخفي. لم تعرف سبب الوفاة، توقعت أن يكون جرعة زائدة من مخدر أو إساءة جسدية من أحد الزبائن لم يحتملها جسدها المستنزف المنهوك. جلست في غرفة ضيقة تغطي جدرانها صور عارية وفي وسطها تماما علقت بطاقة ورقية مكتوب عليها «أنت أجمل من أن يحظى بك رجل واحد». قرأت ذات البطاقة أكثر من مرة في أثناء تخطيها للأجساد الملقاة أرضا وعبورها الرواق الطويل المودي للغرفة حيث تجلس، وفي صندوق أشياء أختها الذي أحضرها لها مدير المكان، كانت نفس البطاقة موضوعة في صندوق حليها. غادرت المكان، لم تسأل عن مكان المدفن، فقط احتفظت بصورة قديمة جمعتهما معا وببطاقة أهدتها في وقت لاحق لفتاة أخرى، وضعتها كذلك في صندوق حليها، فتاة قوية استكملت نموها في رحم مركز البطاقات، مستمدة منها ومنه ما يلزمها من غذاء لتزداد قوة.

أخرجت من حقيبتها علبة مسحوق التجميل الصغيرة، فتحتها وراحت تمسح بالإسفنجة دمعة أو اثنتين هربتا من مقلتيها. أزاحت خصلات شعرها الفضي القصير من فوق جبينها، ثم أعادت العلبة للحقيبة. أزاحت الروزنامة وألقتها أرضا. ثم اعتدلت في جلستها وراحت تفكر في تلك اللحظة الراهنة التي ينبغي لها أن تنهي فصلا من حكاية وتبدأ آخر. اليوم لا تملك رفاهية التفكير في أي موضوع شخصي، فهناك ما هو أهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكوام من الورق في صناديق موضوعة أرضا، طاولة خشبية صغيرة عليها علبة بها سلة من الأقلام وكومة ورق حوافها اليمنى مخاطة بخيط يجمعها سوية ككتاب. وعلى الصفحة الأولى منه كتب بخط عريض «إلى ليلى...» تحسست الأوراق، ثم المكتب، كان المكان باردا رطبا ضيقا، إلا أن منظر الأوراق المكومة هنا وهناك يمنحه اتساعا من نوع ما. فكل ورقة نافذة، وكل كلمة خطوة في درج غير مرئي يرتفع مبتعدا عن القاع. وضعت المصباح على الطاولة، وجلست على المقعد الصغير الملتصق بها. حدقت في الكتاب يدوي الصنع أمامها، كتاب تفوح منه رائحة العود. وفي عقلها تفككت لبنات الأفكار والذكريات، تطايرت في فضاء رأسها، ودارت حول نفسها كالإعصار. ثم راحت تتساقط برفق وتصنع بنيانا آخر بسمت جديد وقياسات مغايرة. رأت الإعصار ينتزع شجرة قديمة من جذورها ويزرعها في بئر متناهية الصغر متناهية الكبر. رأت قردا صغيرا مرسوما بألوان زاهية على جذع شجرة يجري ويمرح في حديقة خضراء بجوار بيت رمادي عتيق، ثم يقفز في حفرة تقود لبيت أسطوري يسكنه سلطان الوطاويط وبناته السبع. رأت شابا أمهق، يكتب على طاولة صغيرة رسائل معطرة، ثم يعلقها مع قطعة من الشوكولا

على فرع شجرة. رأت أبطال حكايات الرسائل كلهم، يتقافزون حولها، يجلسون على حافة البئر وعلى حافة عقلها ويضحكون. «إلى ليلى...» مررت أناملها على الكلمة جيئة وذهابا، اقتربت برأسها من الورق وراحت تستنشق عبيره بقوة، ثم عادت لتلامسه من جديد. أمسكت طرف أول ورقة، وقلبتها وبدأت في قراءة الصفحة الأولى...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ارتفعت الأعناق وشخصت الأبصار نحو السماء، ترك كل من الواقفين في الميدان ما يشغله وراح ينظر نحو كسف الدخان السوداء المتصاعدة والمتزايدة والتي حجبت شمس الصباح، وغطت برماديتها الداكنة زرقة السماء وبياض سحبها. «هل هو حريق؟» تساءل كل منهم، لكن الدخان لم يكن متصاعدا من مكان واحد بل من أكثر من موضع. «وهل يمكن أن يحترق أكثر من موضع في ذات الوقت؟» تساءلوا في صمت، كان الأمر مقلقا، لكنه لم يصل لمرحلة الهلع إلا عندما بدأ الواحد تلو الآخر يكتشف أن جهازه اللوحي لم يعد متصلا بالشبكة التي تقوم بتحميل ومسح البطاقات تلقائيا، وأن عشرات الآلاف من البطاقات المحفوظة عليها والتي تستخدم في التعاملات اليومية بكل أنواعها تم حذفها بالكامل. «ماذا حدث؟» سؤال حل في عقول الجميع، لكن أحدا منهم لم يملك الوسيلة للجهر به. ليشعروا للمرة الأولى في حيواتهم أنهم بُكْم!

تسارعت حركتهم، راحوا يقحمون رؤوسهم وسط مجاميع لا يعرفونها للتحقق من أجهزة الآخرين، وبعد دقائق، تأكدوا أن الأمر ليس شخصيا، وأن جهاز كل منهم ليس معطلا، فلا يمكن أن تتعطل أجهزة الجميع في نفس اللحظة. الأمر أكبر من هذا وأخطر. هناك خلل ما في النظام.. هل يذهبوا إلى مركز البطاقات الرئيسي للتحقق من سبب هذا الخلل، لكن المركز على الأرجح هو مصدر الدخان. هل هو حريق إذن تسبب في هذا العطل الذي يحدث للمرة الأولى منذ أكثر من مئة عام؟ ركض البعض في اتجاه الحريق، وهرب منه آخرون يحملون أطفالهم وأكواب قهوتهم الفارغة، ويبتعدون بسياراتهم عن مصدر الدخان نحو بيوتهم. ووصل كل منهم لوجهته، وتأكد لمن طارد النار أن النار تلتهم مركز البطاقات الرئيسي وبعضا من المرافق المحيطة به. غطوا وجوههم بأكفهم فزعا واختناقا، وراحوا يركضون مبتعدين عن هذه الجحيم، وفي رؤوسهم تتكاثر عشرات الأسئلة. «أين سيارات الإطفاء؟» تعجب البعض، وواصل الهروب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدق آدم في جهازه اللوحي، لا شيء، لا شيء على الإطلاق، هذا لم يحدث من قبل. لم يكن قد غادر منزل ليلى بعد، لاحقته نظرات أبيها المستنكرة

وجوده، ونظرات الشاب المكبل الملقى أرضا. كيف لم تحضر الشرطة إلى الآن؟ الأب يطرق بخفة على ظهر الجهاز خاصته، ويعود يفتش فيه من جديد، ولا بطاقة واحدة. حتى صباخ الخير الآن لن يتمكن من قولها للعاملين معه بالمدرسة، أيا كان لا تهم المدرسة الآن، المهم هذا المجرم الملقى أرضا وهذا الثور الذي يحوص في الغرفة والذي لا يكف عن ركل الآخر في بطنه ووجهه، حتى أوشك أن يفقد وعيه مرة أخرى. وليلى، أين ليلى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«لو أننا كنا كغصني شجرة

الشمس أرضعت عروقنا معا

والفجر روانا ندى معا

ثم اصطبغنا خضرة مزدهرة

حين استطللنا فاعتنقنا أذرعا

وفي الربيع نكتسي ثيابنا الملونة

وفي الخريف، نخلع الثياب، نعري بدنا

ونستحم في الشتا، يدفئنا حنوُّنا»

صلاح عبد الصبور

كانت مشتاقة للكلمات، للأوراق، للشعر، للحكايات والقصص، الخرافي منها والحقيقي، كانت مشتاقة لرائحة الورق الذي يلف قلبها كصدر دافئ، يربت على عقلها ككف عجوز.

«عزيزتي ليلى...

ليس التاريخ هو تلك الكلمات الميتة، المنتصبة على سطورها كشواهد القبور. فلو أنك نبشتِ التراب تحت تلك الشواهد الأنيقة، لوجدتِ الموت والعفن. وإن تخطت روحك الباقية حدود جسدك الفانِ، وتحررت البصيرة من نير البصر، فسوف تعثرين في بطن الموت على الحقيقة في أبشع صورها، فلا يفزعنك وجهها المتآكل، وواصلي التنقيب في قلب الموت عن الروح المفقودة، روح الكلمة التي غادرت أرضنا منذ عشرات السنين.

في تلك المقبرة، ما بين تلك الشواهد، وُلِدت. تعلمت الحروف فوق الألواح الرخامية وصدقتها واكتفيت بها طفلا، ثم تشككت فيها ونبذتها صبيا، حتى شب عقلي ونضجت فكرتي، فكفرت بها وأعلنت عليها الحرب.

هشمتها جميعا ونبشت من تحتها الثرى لأعثر على الحقيقة المطمورة تحت زيف الشواهد وسخفها. غرقت بين السطور، وانتشلتني من الغرق السطور. جلدتني الحروف، وداوت جراحي الحروف. قتلتني الكلمة، وبعثتني الكلمة، وأصابتني بعدوى الدهشة التي وجب على أن أنقلها لشخص سواي. عثرت على كل الإجابات... إلى أن بقي سؤال واحد عجزت عن معرفة إجابته...

ماذا بعد؟!

الآن وقد عرفتِ سري الكبير الذي كبرت معه وهو يحدق في بعين مخيفة أينما ذهبت، هذا الذي نبذتهم لأجله فنبذوني لجحودي وطردوني من نعمهم لأتيه في الأرض وأضيع فيها، الآن أكتب وأنا أعرف أنك في معسكر الإصلاح والتهذيب. المكان الذي فقدت فيه قطعة من روحي وكرهت فيه كل شيء. كاد الظلام يفقدني عقلي. راودتني الهلاوس وصرت أرى الأشعار تطفو أمامي في الظلام

«من أين أبدأ والظلام

يلتف في أقصى الوراء وفي الأمام

عرجاء حتى الذاكرة

والذكريات

يا سيداتي معذرة

أنا لا أجيد القول، قد أنسيت في المنفى الكلام

وعرفت سر الصمت... كم ماتت على شفتي في المنفى حروف

الصمت ليس هنيهة قبل الكلام

الصمت ليس هنيهة بين الكلام

الصمت ليس هنيهة بعد الكلام

الصمت حرف لا يخط ولا يقال

الصمت يعني الصمت

هل يعني الجحيم سوى الجحيم؟!»

هكذا كان يهمس في عقلي نجيب سرور، توحدت مع الأبيات فصرت صاحبها وصارت من بنات عقلي. وعندما خرجت، خرجت شخصا آخر، شخصا لا يكاد يعرف من هو. اعتزلت الناس واكتفيت بصحبة كلابي. تدبرت لنفسي عملا في

الحراسة الليلية لحديقة الحيوان، لأكون بعيدا بما يكفي عن أعين الناس التي تلهب نفسي وعن الشمس التي تلهب جسدي. ولكي أحصل على طعام لكلابي من مطابخ الحديقة. أطلقت لحيتي، وصبغتها وشعري بلون أسود داكن، وضعت عدسات لاصقة بنية واستخدمت مساحيق التجميل لأخفي لوني الحقيقي. لأخفي نفسي الحقيقية التي ما عدت أحتمل وجودها وسط كل هذا الزيف. إلى أن عثرت صدفة على تلك الفتاة الصغيرة التي تهرب من كل هذا العالم وتصنع لنفسها عالما خاصا بها بين الحيوانات والأشجار العتيقة. خطر لي أن أعلمها بعضا مما أعلم، فآنستها وائتنست بها، بذرت في عقلها البذور فكبرت وطرحت أملا ونور. عرفت أنني لست وحدي، وأنك رفيقة روحي وابنة عقلي ونصفي الأكثر نضارة وأشد جموحا. تعلمت منك أن أتخلص من كل الأقنعة التي تقنعت بها في محاولتي للتأقلم، وأن أعود لذاتي القديمة الحقيقية، وعدت. وأخبرتك بالقليل عن كل شيء، والمتبقي أشد بؤسا وقتامة، فهل ستتحملين المزيد من الحقيقة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين ذهبت ليلى؟ لم يعلم. لم يكن غريبا عليها الاختفاء من دون سابق إنذار، لكن ما حدث بالأمس كان بشعا، أن يعتدي عليها أحدهم داخل منزلها وفي يوم كهذا قبل أن تلتئم جراحهما المفتوحة التي تسببت فيها زوجته برحيلها المفجع، وأن تختفي بعدها وتترك شابين في المنزل يكاد أحدهما يقتل الآخر. بالتأكيد الأمور ليست على ما يرام. حتى السماء تبدو أمامه غائمة تفوح منها رائحة الدخان. هل هو دخان أم ضباب؟ فكر، ثم تذكر جهازه اللوحي الذي فرغ تماما من كل ما فيه، وجهاز آدم كذلك أصابه نفس المصاب. صعد للطابق العلوي وارتدى ملابسه كاملة، ثم هبط وغادر المنزل دون أن يلقي نظرة أخيرة على غرفة المكتب ومن فيها. بعض الناس يركضون في الشارع، ليسوا أطفالا وإنما رجال ونساء يركضون حاملين حقائبهم وأطفالهم. والسماء قاتمة، وفي أقصى الأفق يظهر دخان ينذر بحريق كبير، منطقة الخدمات؟ ربما، استقل عربته وقطع الشوارع بسرعة، كانت الإشارات المرورية مطفأة، وسيارات كثيرة تسير بالاتجاه والاتجاه المعاكس. ما هذه الفوضى؟ لم يسبق له أن رأى شيئا كهذا. بدأ يسعل، واستعصى عليه التنفس بشكل طبيعي، فأمسك المقود بيد وبيد أخرى غطى أنفه وفمه، وبعد لحظات تأكد من أن مصدر الحريق هو مركز البطاقات الرئيسي. لكن نورسين... يا إلهي. أصابه الذعر ولم يدرِ هل يتراجع متفاديا خطر الاختناق، أم يتقدم ليبحث عنها. أوقف السيارة في وسط الشارع ونزل منها. كانت الرؤية شديدة الصعوبة لكنها لم تستحِل بعد. بطاقات كثيرة متناثرة هنا وهناك حول الحريق. المئات أو ربما الآلاف منها. وعشرات من الناس يكتموا أنفاسهم ويجمعوا أكبر قدر ممكن

منها. انحنى والتقط واحدة، ولّى ظهره للحريق ورفع معطفه لأعلى ليتفادى الحرارة والدخان، وقرب البطاقة من وجهه، فلم تزِده إلا فزعا

«المجموعات التجريبية للعلاج تعلن التمرد وتعد بنشر الفوضى في البلاد»

انحنى من جديد وراح يجمع عددا من البطاقات

«دافعوا عن الوطن وعن أنفسكم ضد المتمردين»

«المجموعات التجريبية للعلاج تعلن التمرد وتعد بنشر الفوضى في البلاد»

«العلاج الجديد يتسبب في عودة الفوضى»

«الدفاع عن البلاد مسؤولية كل مواطن شريف، حاربوا المتمردين»

«الشعب والشرطة في خدمة الوطن، لا تنتظر شرطيا ليدافع عنك، دافع أنت عن نفسك وعن بلادك»

«دافعوا عن الوطن وعن أنفسكم ضد المتمردين»

«يا إلهي» فكر «أين ليلى ونورسين الآن؟»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعد يحتمل البقاء أكثر، ليلى لم تعد، وأبوها اختفى، والشرطة لم تأت. الناس مذعورون في الخارج والجهاز اللوحي لا يعمل. نظر للجسد الملقى أرضا وهو يحاول عبثا التملص من الحبال التي تقيده بلا فائدة. الدماء تنضح من أنفه وجبهته، وحول عينيه هالات زرقاء من شدة الضرب. أمسك غطاء رأسه وراح يسحله حتى وصل لسيارته، ألقاه على المقعد الخلفي ثم دلف هو وانطلق نحو الوجهة التي يهرب منها الجميع. أغلق نوافذ السيارة جميعها واقتحم الدخان. كان أسود كثيفا يحجب الرؤية بشكل تام، فصار يقود معتمدا على ذاكرته بالكلية، دون أن يبصر أمامه شيئا. جسد ما ارتطم بعنف بمقدمة السيارة، لم يتوقف. أكمل طريقه، حتى وصل للمكان المفترض أن يكون فيه مركز البطاقات الرئيسي. إلا أنه صار الآن كتلة من نار تتوسط المدينة وتبث فيها الهلع والاختناق. تبدت وسط الدخان أشباح أناس ينحنون ليلتقطوا أشياء من على الأرض. ترى ما الذي يمكن أن يكون ذا أهمية لدرجة تجعلهم يتحملون تلك المشقة لأجل الحصول عليه، تساءل. خرج من السيارة مسرعا، توجه نحو أحد الأشباح كاتما أنفاسه بذراعه. اقترب منه فابتعد الآخر فاقترب من جديد. أمسك بما في يديه، فرفض الثاني أن يفلتهم، فلطم وجهه بقوة وأرداه أرضا، وراح يجمع ما كان في يديه، ثم عاد للسيارة وأغلق بابها عليه. أخذ يقرأ البطاقات الواحدة بعد الأخرى. علاج، متمردون، حرائق، فوضى، دافعوا عن بلادكم، لا تنتظر الشرطي، الشرطة والشعب في خدمة الوطن.

ما هذا الذي يحدث؟ لم تمر البلاد بهذا من قبل. لماذا الآن؟ أبسبب العلاج؟ شخص ما يخبط بقوة بكلتا يديه على الزجاج، ثم شخصين، ثم ثلاثة. يدير المفتاح ويهم بالمغادرة. فيظهر آخر ويلقي بجسده على مقدمة السيارة، فيدهسه ويدور حول نفسه ويعود أدراجه نحو المنطقة السكنية مبتعدا عن هذا الجحيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«يرتجي الناس أن يقوم إمام

ناطق في الكتيبة الخرساء!»

أبو العلاء المعري

عزيزتي...

أعلم أن كلماتي في الماضي كانت أرقّ منها الآن، وأعرف أنها الآن عبء ثقيل على نفسك، يصعب حمله والحياة معه. فوجه الحقيقة في زماننا هذا مفزع وقبيح، يصيب من يتمكن من رؤيته بلعنة الفهم الكئيبة، تنقشع من أمامه الأضواء واحدا بعد الآخر، حتى يدرك أنه عارٍ وسط متاهة مظلمة، لا أول لها ولا آخر. ولكن رغم هذا، يبقى هذا الظلام هو الخيار الأوحد للقلوب المبصرة.

منذ مئة عام أو يزيد. كانت الفوضى في أوجها. صار القتل فعلا اعتياديا في سبيل البقاء. وصار الحفاظ على الحياة هو الغاية الوحيدة للكثير من الناس. ولكن ظلت الثورات التي نشبت في عددا كبيرا من دول العالم، ترفض التخلي عن مبادئها والانصياع للسلطة أو للغرائز البشرية البدائية، البقاء. ظلت تحاول القفز على لحظة الآن حيث الظلام التام. ومد البصر نحو أفق بعيد يمكن أن يعود فيه الإنسان لإنسانيته. لكن الأمر لم يرق لأصحاب الحكم والقرار. وجاءت قراراتهم الملزمة بمنع النسخ وتداول الأوراق وإصدار البطاقات التي ستصير الوسيلة الوحيدة القانونية للتواصل، بحجة الحفاظ على أمن البلاد وسلامة مواطنيها. حكموا على الكلمة بالإعدام، بالنسيان والهلاك، لتعلوا كلماتهم الجوفاء فوق الحقيقة وتطمسها. لكن الثوار لم يقبلوا ولم ينصاعوا، وظلت أوراقهم وكتبهم هي الدستور والقانون والملاذ. جمعوا كل معارفهم المحكوم عليها بالحرق، وأخفوها في سراديب تحت الأرض. أنفاق كبيرة متشعبة كانت تستخدم حينها لمرور قطارات مخصصة للأنفاق. تحصنوا في تلك الأنفاق ودافعوا عنها. كانوا آلافا بل عشرات الآلاف. يقضون لياليهم تحت الأرض في النسخ والكتابة والتأريخ لما حدث وللجاري حدوثه، يوما بيوم، نفسا بنفس، طلقة بطلقة. صنعوا سجلات بأسماء الشهداء وصورهم وحكاياتهم. رسموا وجوههم على جدران الأنفاق مجنحين، وعلى

أجساد جياد، يطيرون في السماء ويتلقون الرصاص بصدورهم العارية. رسموا وجوه الحكام، وأسلحتهم ومدرعاتهم، وكتبوا فوقها الأسماء والأشعار. صار النفق المتشعب تحت القاهرة بأكملها صفحة موثقة في دفتر تاريخ العالم، وتاريخ الوطن وتاريخ الثورة. لكن الأمر لم يستمر طويلا. لم تصمد قوتهم أمام قوة النظام. حوصروا في مكانهم، جمع كل من قالوا لا. وحشروا جميعا في الأنفاق وغلقت عليهم الأبواب الحديدية. صب فوقها الإسمنت وصارت كقبر مغلق على أموات. ولأن المؤن قليلة، تساقطت الضحايا الواحد تلو الآخر، جوعا ومرضا وحسرة على ثورة كاملة دفنت في عمق الأرض وطمست معالمها ولم يبق منها حتى ورقة أو كتاب يحكي ما حدث. لكنهم واصلوا الكتابة والتأريخ.

ولم يكن غيابهم سببا كافيا لاستتباب الأمن. ففي الأعلى، ظل الناس يسرقون ويقتلون وينهبون. لكن أيا من المجرمين لم يلق مصير هؤلاء الثوار، صار معظم الناس في طفرة فريدة من نوعها مرتكبا لجريمة أو أكثر، في سبيل البقاء، والحصول على الطعام والمسكن وربما النساء. ومرت الأيام، مات وقتل أعدادا لا تعد ولم يُعنَ بإحصائها أحد. وانصاع الناس أو المتبقي منهم للنظام الجديد في النهاية. وصار نظام البطاقات هو الأمل في حاضر أفضل وغد أقل وعورة. وبدأت الدولة مع القلة المتبقية من مواطنيها في بناء مصر الجديدة، المتحضرة، السعيدة. ونست أو تناست أياما مظلمة راح فيها من راح، وبقي فيها من بقي تحت الأرض حتى مات وتعفن وسط أوراقه وأقلامه.

هل يمكن للأمر أن يكون أكثر بؤسا؟ بالطبع، فالأشد بؤسا على الإطلاق هو رسائل الأموات التي لا يقرأها أحد. لكن القدر شاء أن أتعثر يوما ما بأرواحهم. وأغوص معهم في عالمهم السفلي العلوي وأعرف ما عرفت. كنت حينها مراهقا في السادسة عشر من عمري. تركت منزل والدتي كما حكيت لكِ من قبل، وبدأت أبحث عن مكان أعيش فيه ومهنة أمتهنها. لأقتات منها وأعيش. عملت عاملا في شركة إنشاءات تعنى بإصلاح الطرق. وبمرور الوقت لاحظت وجود تلك الكتل الخرسانية والعوائق المتشعبة في أماكن كثيرة تحت الأرض. أثارني الأمر، وتتبعته، حتى إنني رسمت خارطة بتلك الشبكة تحت الأرضية العجيبة. بحثت في خرائط مديريّ فلم أعثر على إجابة وبالطبع لم أتمكن من سؤالهم، فتناسيت الأمر حتى نسيته. وذات مرة مات أحد كلابي، فرحت أبحث عن مكان أدفنه فيه إلى أن وجدت حديقة مهملة بالقرب من منطقة الآثار القديمة، وكانت قريبة إلى حد ما من موقع عملي. رحت أحفر أرضا حتى اصطدم المعول بشيء صلب، حفرت حوله فوجدت قاعدة إسمنتية على هيئة مربع كبير. لم أعرف حينها سببا واضحا لما فعلته، ربما لم يكن هناك سبب سوى الملل. رحت أبحث في عدة العمل الخاصة بزملائي في الموقع، حتى عثرت على حفار كهربائي ثقيل مخصص لتكسير الطرق، أخذته وعدت

للحديقة حيث لا أحد، وبدأت في الحفر. في أول لحظة تسببت قوة الحفار باندفاعي إلى الخلف بقوة وإفلاته من يدي. فعرفت أن عليّ أن أبذل قدرا أكبر من الجهد لتثبيته. وفعلت، كان الأمر شاقا إلا أنه انتهى بتكسير المربع الإسمنتي وبظهور بوابة حديدية مغلقة بقفل كبير صدئ. ضربته ضربة واحدة بالحفار ففتح. الآن يمكنني القول بأن الأمر لم يكن صدفة، وأن الفضول لم يكن السبب الوحيد فيما حدث. كانت هناك قوة ما تدفعني نحو تلك البوابة المفتوحة على عالم سفلي، قلب عالمي بأكمله رأسا على عقب. كأن أرواح المدفونين في الأسفل، نفذت إلى جسدي وتسلمت زمام عقلي وعضلاتي وأعصابي وقادتني نحو هذه الحفرة، ساعدتني في حمل تلك العدة الثقيلة التي لم أكن لأتمكن من استخدامها في ظروف أخرى لفرط ثقلها، وفرط ضعفي. كلمات كثيرة مكومة وسط رفات كاتبيها تطايرت وشدتني بخيوط خفية نحوها لأعثر عليها لتبعث، بعد رقاد ما يقرب من تسعين عاما.

في البداية لم أتمكن من النزول، كان هناك سلم يقود لأسفل، ترتمي عليه أشياء لم أفهم في بادئ الأمر ماهيتها. وبعد بعض التدقيق أدركت أنها رفات شخص ما مرتمية على السلم. أصابني الذعر وكدت أهرب من المكان. لكنهم لم يدعوني أذهب. شيء ما يشبه الفضول لكنه أقوى منه وأكثر إلحاحا دفعني للنزول. غطيت أنفي وفمي بكف يدي وفتحت المصباح ونزلت. تخطيت الجسد الملقى وواصلت الطريق لأسفل. وبمصباحي الصغير تسرب النور إلى قلب الظلام. ظلام طال بقاؤه حتى شاخ ولفظ أنفاسه الأخيرة أمام مصباحي وأمامي. تلك دورة الحياة، نور يتبعه ظلام وظلام يتبعه نور، اليس كذلك؟ أما زلتِ معي أم أن كلماتي أثقل مما يمكن لقلبك الصغير أن يحتمل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تناثرت البطاقات في الطرق، ليس فقط في محيط مركز البطاقات الرئيسي وإنما في كل طرقات المدينة، حتى في المنطقة السكنية. وعلى غير العادة لم تكن البطاقات الورقية مخصصة للمعايدة أو للمناسبات الخاصة والسعيدة. كانت جميعا تحذيرية، إخبارية، تصف في اقتضاب معتاد أحداث شغب وعنف غير معتادة، وتدعو المواطنين للتصدي لها.

وقفت نورسين وسط الطريق، مخلفة سيارتها خلفها، تراقب ألسنة النار البعيدة تمتد نحو السماء، وتصنع حولها جحيما مصغرا تزداد اتساعا، مؤطرا بهالة سوداء من الدخان. لم تفهم، كيف يمكن لهذا أن يحدث، استقلت سيارتها وانطلقت نحو قسم شرطة القاهرة. لم تكن الوحيدة المتجهة لهناك، فعندما وصلت كان القسم محاطا بعشرات الناس، بل المئات منهم. يحيطون بالسور الحديدي، يتسلقون السور الحديدي، ويقتحمون الأبواب التي لم تعد مغلقة ويطلون من نوافذ الطوابق الأربعة. كلهم بملابس مدنية، ولا أثر

لشرطي واحد، حشرت نورسين نفسها وسط الجموع المحتشدة حتى دلفت للمبنى ثم عبرت بصعوبة رواقا طويلا مزدحما بناس تنحني لتلتقط بطاقات ملقاة أرضا، ومنه تفرعت عدة مكاتب حالها كحال الرواق، أين الشرطة؟ تساءلت. فعلت كما يفعل الجميع، راحت تجمع عددا من البطاقات الملقاة. يدفعها أحدهم فتكاد تنكفئ على وجهها. تحاول الحفاظ على إتزانها وسط من يتدافعون. ينظر أحدهم للبطاقات في يدها فتخفيها تحت إبطها وتشق طريقا نحو الخارج وسط أجساد متلاصقة تفوح منها رائحة العرق. تتعثر بجسد ما ملقى أرضا وتسقط فوقه ثم تنهض مسرعة، تلقى نظرة عليه فإذا به شاب أمهق فاقد الوعي على وجهه آثار دم متخثر، يربطه آخر من معصميه ويجره خلفه عابرا به الرواق نحو مكتب ما. يدفعها الحشد من جديد فتدوس صدره رغما عنها وتركض خارجة. وآخرون لا يرونه يدعسون وجهه وجسده بأقدامهم في محاولة للمحافظة على اتزانهم حتى لا يقعوا أرضا. يسيل دم جديد طازج فوق الدم المتخسر، ويئن، وسط حشد أصم لا يسمع ولا يرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لن أحكي لك عن المشاعر التي تفجرت في نفسي عندما رأيت ما رأيت بالأسفل، فلكِ أن تتوقعيها بل وتشعري بها حتى وأنتِ هناك على طاولتي الصغيرة تقرئين هذا البؤس في ورقة. فأنا ما زلت أؤمن بأن كل تلك الأرواح المحررة بعد عشرات الأعوام من الحبس تعمل عملها فينا دون أن ندري، تسكن الكلمات فتثقلها وتسكن الصمت فتلعنه وتسكن الأرواح فتقودها نحو نهاية تليق بختام تلك الحكاية، ربما اليوم أو الغد أو في عهد آخر لم يبدأ بعد. بعد أن تسيل الدماء وتجف الدماء. أول ما رأيت على الجدار المجاور للباب كلمات كتبت بالدم، ربما كانت بدماء الجسد الملقى بجوارها. ربما حاصره اليأس والفزع في هذا الركن الضيق بجوار باب حديدي محكم الغلق، فقطع أحد شرايينه وكتب ما كتب بدمه المتدفق على الحائط، أتعلمين ماذا كتب؟

لن تُبعث الكلمات فرادى

بل سيُبعث كل الأموات مجتمعين

ليقتص القَتْلَى من القَتَلَة

وتقتص الكلمة من الصامتين.

اقشعر بدني وطفرت من عيني الدموع، أحسست بكآبة تحط بجناحيها السوداوين العملاقين فوق نفسي، فتحجب عنها كل نور أو بصر. كآبة وخوف وشفقة. لكنهم لم يتركوني أذهب. وبخيوطهم الخفية جذبوني للأسفل. لأشاهد بقايا المذبحة. وبقايا جثث تفرش أرض نفق يمتد على مرمى البصر. وبينهم كتب وأوراق، كتبوا فيها تاريخ المأساة بلا حذف أو تنقيح. كل منهم كتب قصته

وقصة العالم الذي لفظه ودفنه تحت الثرى. كل قتيل كتب حكايته وحكاية قاتله، ورسم وجهه على جدار. كلا منهم كتب عن أصدقاء سبقوه نحو السماء ورسم صورهم مجنحين على حائط. كتبوا عن أحلامهم المجهضة وتاريخهم المغتال وثورتهم الوئيدة. كأنهم كانوا يقاومون الصمت المحتم بكل ما يمتلكون من كلمات. لقد كتبوا كل شيء يمكن أن يخطر على بال، وأنا قرأته... أمضيت أياما وليالي طوالا أجمع الأوراق وأقرأها. كنت أتغذى على كتبهم ومذكراتهم بنهم عجيب. كأنني فجأة عثرت على سبب أحيا لأجله. لم أعرفه محددا مصاغا في كلمات واضحة. لكنني عرفت أن قراءتي تلك هي نوع من الانتقال بين عالمين، نوع من التحول الغرائبي الذي يصب أرواح الموتى في جسد حي فيُبعثوا فيه، ويحيوا من جديد في عقل واحد يضمهم مجتمعين، نوع من التناسخ يكفل لهم انتقالا آخر وآخر، حتى تستمر دورة حياتهم ولا ينقطع نسل حكاياتهم أبدا.

مئات الأسماء حفرت على جدران ذاكرتي. عرفت كل شخص فيهم كما لو كان صديق قديم. عشت معهم أيام ثورتهم الأولى، حملت معهم الرايات في الميدان المكتظ بأناس تجمعهم كلمة واحدة «لا». قُتلت مع رفاقهم، ودفنت في قبورهم، ثم بعثت من جديد لأمارس موتة أخرى ثم أخرى. قرأت الكثير من النوتات الموسيقية، وعزفتها في رأسي. سوناتا ضوء القمر التي تعلمت عزفها في طفولتي في قصرنا الكبير النائي، لفرط ما أحببتها ولشدة ما أثارته فيّ من شجن. وجدتها تخرج من تحت الأرض بحلة جديدة، تحمل بين نغماتها الموت والحياة، الحب والغضب، تحمل رفات الموتى وبقايا الوطن. عشت كثيرا من ذكريات طفولتهم، التي اختار البعض تدوينها. وكتب عليها الخلود عنوة على سطح ورقة. عشت عشرات قصص الحب. وقرأت العشرات من رسائل الاعتذار. والعشرات من رسائل الانتحار!

ولم تقتصر أوراقهم على تدوين تفاصيلهم الشخصية. فقد كتبوا كل معارفهم، كل الروايات التي قرأوها، كل حكايات التاريخ التي بقيت على قيد الحياة في عقولهم. كل الأفكار والمعاني والقيم التي تعلموها من معلميهم وكتبهم. أعادوا نسخها من جديد. والغريب أن كل الأوراق كانت مرتبة، ومصفوفة معا بنظام شديد، وفي الأسفل، فوق القضبان، كانت رفات الموتى متموضعة بنظام مهيب بجوار بعضها البعض. لم تكن هناك جثة واحدة خارجة عن هذا النظام. ما عدا تلك الملقاة على السلم، بجوار الكلمات المدممة. لقد ودعهم جميعا... وبقي هناك وحده. هل تتخيلين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السيارة من جديد، لا يسمع أنين المرتمي على المقعد الخلفي مخضبا بدمائه، يبصر نفسه في المرآة، قسماته الغريبة تزداد غرابة، والصلابة

المتسمة بها ملامحة تشتد وتتحول لوحشية. تلك العينان تذكرانه بذكرى قديمة. اليوم الذي ارتكب فيه جريمة. ليلة تعقب رجلا وانهال عليه ضربا حتى أرداه قتيلا لأنه وضع سما للكلاب الضالة فتسبب في موت كلبته. تذكر كيف طارده وهاجمه في طريق مظلم. كيف ثبت زجاجة فارغة على حنجرته وسحقها بها حتى مات خنقا. وكيف ركض هاربا بعدها حتى وصل لمنزله، ارتمى على المقعد ورأى انعكاس صورته في التلفاز المغلق، لم يرى صورته القديمة، كأن شكلا جديدا انطبع فوق ملامحه فطمسها. لتتحول إلى شيء ما كريه يتفادى رؤيته في المرايا بقدر المستطاع. والآن، تلك الملامح الكريهة تحدق فيه، يتجاهلها، لكنها تشده نحوها بقوة. ملامح رجل قاتل، ينظر إلى الخلف. «أين الشرطة اللعينة الآن؟ يا إلهي ماذا يحدث؟» يفكر.

تكتظ المتاجر بالناس، يبتاعون كل ما يستطيعون حمله. ثم يركضون نحو سياراتهم وبيوتهم تحت السماء الرمادية. يتقاتلون أمام ماكينات صرف النقود. يجمعون البطاقات بقدر ما يستطيعوا.

«دافعوا عن بلادكم ضد المتمردين»

«الشرطة والشعب في خدمة الوطن»

«أنت جندي في ساحة معركة، دافع عن وطنك الآن»

«المتمردون يسيطرون على مراكز البطاقات»

«أنا جندي في ساحة معركة، ومهمتي الحفاظ على وطني من المتمردين»

«لقد أصاب العلاج الناس بالجنون، ليته لم يظهر»

«سأدافع عن وطني ضد من أصابهم الجنون بسبب العلاج»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزيزتي ليلى، هل أصابتك الحيرة من جديد؟ أعرف أني لطالما أصبتك بها مذ كنتِ طفلة. والآن أنا أصيبك بالحزن، وسيزيد حزنك عندما أخبرك ببقية الحكاية. عندما أقحم فيها شخص لم يكن ينبغي له دخولها. في ذاك اليوم الذي بدا ككل الأيام، تعقبتك أمك وأنتِ في طريقك للحديقة ليلا، لم ألحظها، ولا أعرف السبب الذي جعلها تشك في الأمر وتقرر تقصي حقيقته. ربما عثرت على أدوات الكتابة في منزلكم أو الرسائل، لا أدري. وبمهارة لافتة، راقبتني وأنا أضع رسالة على الشجرة، ثم تعقبتني إلى منزلي في المنطقة الأثرية القديمة. عرفت مكمني الذي لا يعرفه أحد، وفي وقت لاحق استغلت غيابي عن المنزل وتسللت إليه، وأغلب الظن أنها فتشته ولم تجد شيئا، فقررت النزول للبئر لمواصلة البحث، بعدها وجدت أوراقي مبعثرة في كل مكان. لقد قرَأت الكثيرِ، رسائلي لك ورسائلك لي، والأوراق المدماة التي

جمعْتَها من الأنفاق. قرأت الكثير مما لا يحتمله عقلها، إلى أن وجدت الورقة التي رسمت فيها الطريق إلى البوابة في الحديقة القديمة. هذا الذي أغلقتة بقفل جديد متين وخبأته تحت التراب من جديد، وبجوار الورقة كان مفتاح القفل. غريبة هي المصادفات التي تقود الناس في طرق لم يكونا على علم بوجودها من الأساس. ربما هو القدر، وربما قوة أخرى تنبعث من تحت الأرض لتفسد حياة من هم فوقها للانتقام منهم بإثارة جنونهم. تتبعت أمك الرسم، ووصلت للحديقة، أزاحت التراب من فوق البوابة وفتحت القفل الجديد بالمفتاح، ونزلت للنفق، وعندما عدت لمنزلي علمت أن أحدا ما فتش في أشيائي ونبشها، فنزلت للبئر ووجدت أوراقي مبعثرة تماما، والمفتاح مفقود، فهرعت خارجا، وركضت في طريق أعرفه نحو الحديقة. كانت البوابة مفتوحة، وعندما نزلت، لم أجدها في بادئ الأمر، وجدتها في مكان بعيد في النفق، كانت قد قطعت مسافة طويلة بين رفات الموتى حتى فقدت وعيها وارتمت وسطهم. حملتها ووضعتها أمام باب مشفى وذهبت، حتى لا تكلفني المساءلة القانونية فقدان الأمانة التي أحملها من عالمي السفلي. وبقية الحكاية، أرجح أنكِ تعرفينها، ربما في وقت لاحق تكتبين أنت نصفها الآخر الذي لا أعرفه، وتبعثين لي برسالة جديدة. لقد افتقدت رسائلك كثيرا يا صغيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«حسنا، تبا للشرطة» فكر آدم. «البطاقات تقول بأننا مسؤولون عن حماية أنفسنا، فليكن إذن». توقف بالسيارة أمام منزل ليلى. الأبواب مفتوحة ورجل وامرأة في الداخل يفتشون في الثلاجة وأرفف المطبخ، وعندما لمحا آدم فرا هاربين. لم يحمله. سحبه من ذراعيه النحيلتين مخرجا إياه من السيارة، ارتطمت مؤخرة رأسة بحافة الرصيف. لم يعر الأمر اهتماما، سحبه لداخل المنزل، علقت ملابسه في مسمار برجل الطاولة، لاحظها آدم فمزق القميص الذي كان مهترئا من كثرة السحل والضرب. ألقاه جانبا، وعاد ليسحبه صاعدا به للطابق الأعلى. دخل غرفة ليلى، وأحكم قبضته على الحبل المربوط فيه معصمي الأمهق ثم ألقى بجسده من النافذة، ربط طرف الحبل في القطعة الحديدية المثبتة على الجدار الخارجي للمنزل المعقود فيها حبال الغسيل، فصار جسمه متدليا من النافذة، مكبلا، مدمما، عاري الصدر، لا يحول بينه وبين الشمس سوى بعض الغيوم المنبعثة من حريق وسط المدينة. «فلتأتِ الشرطة اللعينة في أي وقت تشاء» فكر آدم وهو مغادر منزل ليلى، مستقلا سيارته ومتجها من جديد لوسط المدينة.

وأما الجسد المعلق على جدار المنزل، فقد جذب أنظار الجميع وأثار فضولهم، بعض ممن قد رأوه ميزوا أنه الشاب الذي اعتدى على الفتاة ليلا قبل أن يوسعه صديقها ضربا، وآخرون لم يميزوه لكنهم لم ينزعوا أبصارهم

من على صدره الذي لا يحمل أي لون على الإطلاق سوى لون الدماء والكدمات، ووجهه المتورم المدمم. تقدم طفل من أطفال الجيران والتقط حجرا من الأرض وقذفه به، فأخطأه، فتقدمت امرأة من المعزين الذين رأوه بالأمس والتقطت حجرا آخر من الأرض وألقته عليه فأصابته في صدره. امرأة كبيرة ناضجة فعلت هذا، إذن فهو مسموح، هكذا فكر بقية الأطفال، وأطفال آخرون خرجوا من بيوتهم خصوصا لمشاركتهم هذا الحدث. «دافعوا عن أنفسكم ضد المتمردين»، «سأدافع عن وطني ضد من أصابهم الجنون بسبب العلاج» كانت تلك بعضا من البطاقات المحمولة في أيدي المتحلقين حول المنزل. حيث توافد آخرون لا يعلمون عن الأمر شيئا سوى أن هناك شخصا مكبلا يرجمه الصغار والكبار

«سأدافع عن وطني...»

فبحثوا تحت أقدامهم عن أحجار تصلح للرجم.

«... ضد من أصابهم الجنون بسبب العلاج»

وصوبوها عليه بمهارة فهشموا منه ما لم يكن قد تهشم بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ماذا تفعل نورسين؟ وأين يمكنها أن تذهب بعد أن أكلت النار مراكز البطاقات. وهل لها سواها؟ الناس يتجمعون في بيوت عائلاتهم، يطرق الأصدقاء أبواب أصدقائهم، يتحلقون حول الموائد ويتزاحمون على الأرائك، أما هي فلا أهل لها ولا رفاق. عندما زارتهم آخر مرة في حفل عيد مولد أمها كانت تتعمد إهانتهم وجلدهم بلامبالاتها. وعندما رحلت الأم لم تكلف نفسها عناء حضور العزاء، كان خيطا رفيعا يربطها بهم وقد انقطع. والآخرون... ليس هناك آخرون. كل من تقابلهم بوجه ضاحك في العمل لم تعرهم دقيقة واحدة لتسجل رقم هاتفهم أو عنوانهم. فلا أحد مهم، هكذا أقنعت نفسها منذ أن انسلت من ظلام المعتقل وكفها مطمئنة في قبضة ناتالي القوية، ولكن الآن ليس هناك ناتالي، ولا أحد، لا أحد على الإطلاق. ظلت قابعة في سيارتها، بالقرب من كتلة الدخان السوداء، تراقب الطريق والناس المذعورون في كل مكان، لم يحضر رجال الإطفاء، بعض الأهالي اقتحموا مركز الإطفاء وأخرجوا السيارات في اتجاه الحريق بصعوبة حتى بلغوه، حاولوا أن يوصلوا خراطيم المياة ويشغلوا المضخات، لم يفلحوا في أول الأمر، لكن الناس تجمعوا وتراكمت المحاولات حتى أصابت إحداها. تدفقت المياه من جوانب عدة، لكن الحريق هائل لا تجدي معه كل تلك المياة الدافقة. وبين الجموع لمحت في يد أحدهم مسدس، لم يقلقها الأمر إلا عندما لمحت آخر في يد أخرى. وبعد بضع دقائق صارت الكفوف القابضة على المسدسات أكثر من أن تعد أو يميز

أصحابها الهائمون وسط كسف الدخان. من أين لهم كل تلك الأسلحة؟ بالتأكيد من مراكز الشرطة. أدارت السيارة وسلكت من جديد طريقها نحو مركز الشرطة بوسط المدينة، صارت القيادة وسط كل الجموع المتزاحمة في الطرق شبه مستحيلة، إلا أنها استمرت في القيادة. أبطأت السرعة لكنها لم تتوقف، ولم يثنِها ارتماء بعض الأشخاص على مقدمة السيارة عن بلوغ وجهتها، توقفت وسط الطريق، وأغلقت قفل الباب ثم خرجت تبحث عما يبحث عنه الجميع في هذا المكان. شقت طريقها نحو بوابة المركز بصعوبة.

عبرت الرواق الطويل وحشرت نفسها بين الجموع. وفي غرفة ما في نهاية الرواق، في ركن يحجبه مكتب كبير. كانت هناك طفلة لا تتجاوز السادسة، تجلس القرفصاء وتبكي. وفي يدها مسدس مصوب نحو الأعلى. حدقت فيها نورسين. نظرت حولها فأدركت أن أحدا سواها لم يرَ الفتاة. ابتسمت لها واقتربت، فتشنجت الفتاة باكية وبيد مرتعشة صوبت المسدس نحو نورسين. ورغم ذلك لم تزل الابتسامة من وجهها. أومأت برأسها في حنو، ومدت يدها نحو وجه الفتاة. فأرخت الثانية رأسها وأجهشت بالبكاء على الكف الممدودة. واستسلمت لليد الأخرى التي راحت تمسد شعرها وتبث في نفسها قدرا من الأمان. انتقلت اليد ببطء من على شعر الفتاة إلى المسدس. أحكمت قبضتها عليه وحاولت سحبه، لكن الفتاة أبت أن تفلته من يدها، ثبتته نورسين بحيث تتوجه فوهته نحو الحائط ثم أمسكت بشعر الفتاة وضربت برأسها الحائط بكل ما تملك من قوة. ارتخى جسدها وسقط أرضا. فشدت نورسين المسدس وخرجت راكضة من المكتب!

لكن الحشود صارت تسد الطريق أمامها تماما. التصقت الأجساد بعضها ببعض وتحول المشي إلى تدافع مؤلم، وفي خضم الزحام انطلقت رصاصة بغير قصد، فاستقرت في فخذ أحدهم. ظل واقفا يصرخ لا بقوة ما في جسده بل بقوة الحشد المحيط به من كل الجوانب، وبعد بضعة دقائق، سقط أرضا ودهسته الأقدام. وبعدها، تكرر الأمر لعدد من المرات لم يحصيه أحد. لم تستسلم نورسين، ناضلت لأجل الخروج حتى تمكنت أخيرا من الوصول للبوابة الرئيسية، ألقت نظرة للخارج فأبصرت البوابة الحديدية الواقعة على بعد بضعة أمتار من مدخل المبنى، مغلقة بالجنازير. ليصبح السور الحديدي فاصلا بين حشدين، كلاهما مسلح وكلاهما غاضب، وكلاهما يحمل في يده مجموعة من البطاقات التي تدعو لحماية النفس والوطن من المتمردين، وفي يد أخرى يحمل سلاحا عامرا بطلقات جاهزة للانطلاق. بالتأكيد ما زال هناك المزيد من الذخيرة داخل المبنى، وعلى الأرجح هذا هو سبب إصرار تلك الجموع على اقتحامه، هكذا فكرت. أخرجت خزانة الرصاصات من المسدس، أحصت عدد الطلقات الموجودة بها، ثم أدخلتها من جديد. عمرت المسدس،

وأفسحت لنفسها مكانا وسط الحشد الذي صار فجأة مدافعا عن مركز الشرطة من هجوم المتمردين الساعين خلف السلاح المخزن بالداخل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يمشي مذهولا في شوارع القاهرة التي ما عادت تشبه نفسها. الدموع تنهمر من عينيه كلما فكر بأن ابنتيه الوحيدتين يمكن أن تكونا مصابتين أو مقتولتين في مكان ما. إنهما عائلته وامتداده في هذا العالم. «هل يمكن أن تكون إحداهما محروقة في مركز البطاقات والأخرى...؟ يا إلهي... لا». فكر، وبكى، وانتحب. تمثلت في عقله فجأة كل اللحظات الفارغة التي كان يمكن إثقالها بعناق أو قبلة أو ابتسامة، أو حديث قصير حنون بين أب وابنته، لا بين مدير مدرسة وطالبته. لقد كان لسبب لا يعرفه يتحاشى النظر لأعينهما، يتحاشى أي محادثة عابرة، ويتجنب اللحظات المهمة لفرط ثقلها واللحظات اللطيفة لفرط خفتها. والآن، تبدو تفاهتهما القديمة وتفاصيلهما الصغيرة كالحلم، في جماله وكماله وصعوبة بلوغه.

لماذا تكون لحظات الاستنارة بتلك القسوة؟ أكان ينبغي أن تحترق مدينة بأكملها ويقتل أهلها بعضهم بعضا، ليدرك روعة صغيرتيه، وروعة كونه أبا لهما؟!

عاد لمنزله عله يعثر على إحداهما، وروعه ما رأى، جموع غفيرة تتحلق حول المنزل وترجم شخصا ما معلقا على الجدار الخارجي له. هل هو الشاب الذي اعتدى على ليلى بالأمس؟ لعله يستحق هذا المصير إذن، وربما لا. لقد رأى في طريقه اليوم بضع جرائم، أناس يقتتلون فيردي أحدهم الآخر قتيلا. وبالتأكيد هناك سبب لكل عراك، فلا يعقل أن يسلب الناس حيوات بعضهم بلا سبب. هل هم المتمردون؟ ومن سواهم؟ وأغلب الظن أن هذا الفتى هو أحد المتمردين الذين فقدوا عقولهم بسبب العلاج. هكذا قالت البطاقات!

أفسح لنفسه طريقا وسط الحشد ودلف للمنزل، مشطه ركنا ركنا، ولم يعثر على أحد. وفي غرفة ليلى أطرق طويلا نحو الحبل السميك المتدلي من النافذة، ثم أشاح بنظره عنه، أغلق باب الغرفة وهبط الدرج لأسفل.

خطر في باله القبو، ربما تكون ليلى بالداخل. نزل إليه وفتشه ولم يجد أحد. غادر القبو، وفي عقله تتردد كلمات كتبت على الجدار بدماء زوجته

كلمات ملعونة، فكر، ملعونة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكلمي... تكلمي

فها أنا على التراب سائل دمي

وهو ظمئ... يطلب المزيدا

أسائل الصمت الذي يخنقني:

ما للجمال مشيها وئيدا؟

أجندلا يحملن أم حديدا؟

فمن ترى يصدقني؟!

أمل دنقل

لم تحتمل ذراعاه النحيلتان حمل جسده كل هذا الوقت، تمزقت أربطتها وكادت عظامه تنفصل بعضها عن بعض. تهشمت ضلوعه من شدة الرجم، وتكسرت عظام وجهه. تورمت ملامحه المكدومة فغطت عينيه وحجبت عنهما بصرهما الشحيح. لكن الشمس المتوحشة ظلت تصبغ ظلام مقلتيه بلون النور. سالت الدماء من جسده حتى تقاطرت على جذع الشجرة المقطوعة بالأسفل، وتخلل حمارها اللون البرتقالي القبيح الذي يصبغها. اشتد الألم والضجيج حتى بلغا ذروتهما. الناس يصرخون ولا يستمعون لصراخهم، ربما لو سمعوا لأدركوا ما فيه من قبح. ربما يتوقفون عن هذا الأذى، فيسكن الوجع ولو للحظة واحدة يستنشق فيها صدره المهشم نفسا يبقيه على قيد الحياة. لكنهم لا يتوقفون. وها هو الألم يصل لحده الأقصى ليبدأ في الزوال شيئا فشيئا. والصراخ يعلو ويعلو حتى يبدأ في التلاشي - لتحل محله موسيقى ما. صوت بيانو يبعث نغماته لتحتضن وتواسي، تهمس في عقله وتملأ الظلام بالطمأنينة. سوناتا ضوء القمر، كان يسمعها كأن البيانو داخل رأسه، وكأن أصابع بيتهوفن تمر على مفاتيح البيانو ثم على جراحه المفتوحة فتلتئم، وتكف الدماء ويكف الوجع. النور أمام عينيه يزداد سطوعا. وللمرة الأولى في حياته يتمكن من مواجهة النور بعينين مفتوحتين، ليست تلك الجريحتين اللتين تنز منهما الدماء، بل أعين أخرى وبصر آخر ينبثق من وسط الظلام الذي استحال نورا مكتمل الحسن. ومن الجسد المهشم، انتزع جسدا آخر لا وزن له ولا شكل. كيان خفيف شفاف، يطفو فوق الحشد ويبتسم. يبصر نفسه من أعلى فلا يشعر بالحزن، يبصر الجموع فلا يشعر سوى بالشفقة. شيء ما يهمس في عقله أن هذا مكان لا تنتمي إليه. إنه ثقل رهيب سقط توا من على كتفي روحك فأعتقها. ألم طفيف يوقظ جسده في الأسفل للحظة واحدة صاخبة، تتخلل لحظات أخرى من السكون والطمأنينة، فتضيع وسطها وتتلاشى ككمشة ملح في نهر جاري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عزيزتي ليلى...

لقد كتبت هنا كل ما أعرف، وأنا أعرف أن الوقت مبكر على قراءته. كتبت صفحتي الأولى للجميع، والثانية لبعضهم، والثالثة لبعض البعض. عرفت أن كل صفحة تُطوى سيرحل معها شخص، ويكتفي عقل، وتمل نفس. حتى يتلاشى الجمع الأول وتختلي بك كلمتي الأخيرة - تمت -

في تلك الخلوة البيضاء، سنتعانق على شفا ورقة، ثم سنفترق من جديد

لتغادري عقلي إلى الأبد

ولأبقى أنا في عقلك إلى الأبد...

تمت.

لا...

لا تنتهِ، كادت تصرخ بها روحها، لكن لا جدوى فقد نفدت الصفحة الأخيرة من الكلمات. كم من الوقت مر على وجودها في البئر المظلمة، لم تستطع أن تعرف. ساعات طوال ربما عبرتهم لاهثة من ورقة مدماة لأخرى معطرة، من كتاب لدفتر يوميات ثائر لدفتر رسوم آخر. كان كنزا مدفونا في باطن الأرض. تذكرت الأسرّة السبعة الذهبية لبنات سلطان الوطاويط، الكنز المطمور في قلب المنزل القديم. ابتسمت، كم كانت ساذجة. إلا أن ما وجدته أهم وأثمن. وما كادت الابتسامة تظهر حتى اختفت، وحل محلها وجوم كئيب. ما هذا الذي تشعر به؟ هل هو حنين لكاتب الرسائل التي تربت وكبرت بين سطورها؟ أم هو غضب منه لأنه اكتفى بالكتابة ولم يتخط عتبة الورقة التي تقرأها لينال منها ما هو أكثر؟ هل هو نبيل اعتزل أمه وحزبه الجائر رفضا لظلمهم وعبثهم وثورة عليهم؟ أم هو جبان انسحب من المعارك جميعا واعتزل الناس في بيت مهجور وبئر مظلمة؟ لكن... ما الذي استطاع فعله ولم يفعله؟ ولو كانت محله، ماذا كانت لتفعل أكثر؟ نعم هو نبيل وجميل، وهو رفيق دربها الخالي من كل شيء سواه. كل العابرين على طريقها أشباح لا وزن لهم ولا أثر، إلا هذا العابر الذي أقام في عمق روحها، لا بجسده، ولا باسمه وإنما بمرادفاته التي امتلأت بها الأوراق، بعضه الذي أذابه وكتب به، وبكلماته التي شيدت بداخلها مدنا مضيئة وسط عالمها المظلم، والآن، ها هو يعري أمامها ظلاما آخر من نوع جديد، ليمتزج النور والظلام ويصنعان معا لونا عجيبا، ليس رماديا ولا محايدا. وإنما هو لون الحقيقة الصرفة. لون العالم بكامل روعته وكامل قبحه.

انطفأ المصباح. على الأرجح نفدت البطارية، في توقيت مثالي لتنبيهها بضرورة الرحيل. صعدت خارجة من البئر، لم تصحب معها أي شيء من الكنز في الأسفل. اكتفت بما حملته ذاكرتها، وهو كثير. على وعد بعودة ولقاء آخر

مع ورقة وكتاب، أما عن صاحب الأوراق فلعله الآن فريسة بين فكي آدم، هكذا فكرت. عليها أن تسرع للمنزل إذن، وتخلصه كما خلصها. لملمت أشياءها وخرجت من المنزل، ركضت في الطريق الأثري الفارغ إلى أن وصلت لنهايته، بدأ الزحام في الظهور، زحام غير معتاد، مذعور، وعنيف.. ومسلح!

«يا إلهي ما هذا؟» لم تستطع أن تفهم. كيف يمكن لمدينة أن تتحول في بضعة ساعات لساحة معركة، يتقاتل فيها الناس ويقتلون. نعم يقتلون. انطلقت أمامها رصاصة من مكان ما وأردت رجلا يقود سيارته قتيلا، هكذا، في ثوان! انقض على السيارة رجلان وأزاحا الجسد المقتول وأسرعا بقيادة السيارة وسط الحشد، دهس سائقها امرأة وطفليها، وشابا ضئيل القامة يحمل في يدية كومة من البطاقات. دهسهم جميعا بلا رحمة وأسرع بالفرار.

«أين الشرطة؟» تساءلت، وتذكرت أنهم قاموا باستدعائها الليلة الماضية ولم يأت أحد. لاحظت الغيوم في السماء، وأدركت بعد لحظات أنها ليست غيوما بل دخان. أدركت أن المدينة تحترق. حاولت أن تلملم بعض البطاقات المتناثرة في كل مكان على الأرض.

«دافعوا عن بلادكم ضد المتمردين»

«الشرطة والشعب في خدمة الوطن»

«دافع عن نفسك ووطنك ضد من فقدوا عقولهم بسبب العلاج»

«العلاج يسبب حالة من التمرد حيث أصابت المجموعات التجريبية بالجنون»

«المتمردون يحاولوا اقتحام أقسام الشرطة، دافعوا عنها وعن أنفسكم وعن سلاحكم»

«خزنوا المؤن بقدر ما تستطيعون في منازلكم»

«الشرطة والشعب في خدمة الوطن ضد المتمردين»

«سوف أدافع عن نفسي ووطني ضد المجرمين ممن تلقوا العلاج الفاسد»

«نحن لا نريد العلاج، فقد أصاب الناس بالجنون»

«كانت حياتنا أفضل قبل العلاج»

كان ما يحدث أكبر من أن تتمكن من استيعابه في دقائق. وقفت وسط الميدان، ترقب ما يدور حولها كأنه شاشة سينما عملاقة تعرض فيلما كريها، لا حبكة له ولا منطق فيه. تلك ليست القاهرة، وهؤلاء ليسوا سكانها. إنهم وحوش. هل يتحول الإنسان إلى وحش بهذه السرعة والبساطة؟ هذا لا يعقل،

هذا لا يمكن أن يكون حقيقيا. أم أن كل هذا هو لعنات الماضي المظلم وقد شقت طريقها للحظة الآن الهشة ففجرت فيها ظلامها وشرورها. لقد صدقت كل الفظاعات التي قرأت عنها في البئر، إلا أنها ماز الت تستصعب تصديق حلول هذه الفظاعات على حاضرها. هذا حاضر طارد لا يمكن العيش فيه أو فهمه. شقت طريقها بين الحشود المتشابكة. علام يتقاتلون؟ تساءلت ولم تعثر على إجابة مفهومة. لن تتساءل مرة أخرى، فقط ستسرع الخطى نحو المنزل. أطلقت ساقيها للريح وكفت بصرها عما حولها وفي عقلها صورة واحدة لشخص واحد، لم يخطر ببالها ما يمكن أن يكون قد حل بها وبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يحوص في الشوارع بلا وجهة. أين يذهب؟ أين يبحث عن الفتاتين؟ الناس في الطرقات جن جنونهم. يتقاتلون بضراوة في المحال على أكياس السكر وعلى رطل أو اثنين من اللحم. يتشاجر سائقو العربات مع المارة ومع بعضهم البعض، بالأيدي والسلاح. أين كان كل ذاك العنف من يوم أو بعض يوم؟ هل كان رابضا في الأركان المظلمة بنفوسهم ينتظر منفذا مناسبا للخروج؟ أكان الشر يصرخ ويخور وسط آذانهم الصماء طوال الوقت منذرا بقدوم يوم كهذا، لكن أحدا لم يسمعه؟ تعثرت قدماه برضيع ملقى على حافة الرصيف. انكفأ على وجهه وتمكن بصعوبة من تفادي السقوط فوق الولد. زحف نحوه بيد مجروحة وقلب مفطور، تأمل وجهه الصغير المنكمش من فرط البكاء. عيناه بنيتان كبيرتان، ينضح منهما الفزع. تتسولان لمسة حنون تربت على قلبه الصغير وتبعث فيه بعضا من الطمأنينة. دفن الرجل رأسه بين ذراعيه، لطم وجهه وأجهش بالبكاء في نوبة عنيفة، خمش فروة رأسة ولطم وجهه من جديد. هذا وجع لا يحتمل، قلبه يضرب صدره بعنف موجع ورأسه يكاد تنفجر من الألم. اقترب من الولد، ألصق شفتيه بوجنته الصغيرة المحتقنة بالدماء وطبع عليها قبلة طويلة. ثم اتكأ على الرصيف وقام واقفا. ألقى نظرة أخيرة على الرضيع، ثم تركه وذهب!

قطع الطرقات ركضا، لا مفر من الزحام، ولا مهرب من الدخان، شيء ما جعله يتتبع الناس للمناطق الأكثر ازدحاما، حتى وإن كانت الأقرب من كتلة النار، حتى وإن صار هدفا متاحا لرجل غاضب، أو جسدا وسط أجساد كثيرة تتدافع بجنون نحو وجهة لا يعلمونها. لكن لا بأس، فالزحام يحمل فرصا أوفر للعثور على الفتاتين. تفرس في مئات الوجوه من حوله، تفتت وعيه وتناثر وسط الحشد، عين هنا وعين هنا وفكر هناك. ليدرك بعد قليل أن ما يفعله عبث في عبث. ها هو الآن في محيط مركز الشرطة. الناس بالداخل متكدسون، أكوام من البشر يدفع بعضهم بعضا نحو السور الحديدي. حتى صار الصف الأول الملاصق له مهروسا ممن خلفه. وأمامهم على الجبهة الأخرى خارج السور حشدا آخر مماثل، يقف على سطح سيارة ويستمر في

عبث البحث عن وجه مألوف وسط مئات الوجوة. أجساد تقع، ترديهم رصاصات، ولا يمنحون رفاهية السقوط أرضا ليحتضروا، فالسقوط غير ممكن وسط هذه الجحيم. يظل القتيل مترنحا تطرده الأجسام الواحد بعد الآخر، يسلمه كتف لكتف حتى يقطع طريقه الوعر نحو الأسفل وتدعسه الأقدام. ومضت في عقله ذكرى بعيدة لم يعلم أنها ما زالت موجودة فيه من الأساس. يوم ضاعت ليلى وهي لم تزل بنت الثالثة في النادي الاجتماعي في يوم احتفال شديد الازدحام. أصابه الذعر هو ونورسين، فيما كانت زوجته بكامل ثباتها، شقت طريقها وسط الجموع، انعطفت لليمين ثم لليسار. كأنها تتبع خارطة مرسومة مسبقا. سلكت طريقا مظلما خلف المبنى الاجتماعي حيث لا أحد. ومنه دلفت لحديقة صغيرة مهملة في نهاية الممر. نظرت أعلى الشجرة فوجدت ليلى متدلية من على أحد فروعها مذعورة. كانت المرة الأولى التي تحاول فيها ليلى الهروب. وكانت المرة الأولى التي تسلك فيها زوجته هذا الطريق. لم تكن تعرفه ولا سبق لها أن أبصرت تلك الحديقة أو هذه الشجرة. شيء ما قادها ببساطة حتى وصلت لابنتها. يد خفية أحكمت قبضتها على كفها وأشارت لها أن سيري في هذا الطريق، فابنتك هناك متدلية من على فرع شجرة. كان أمرا غريبا. لكنه ليس أغرب من أن يبصر وجه نورسين محشورا بين قائمتين حديديتين للسور المحيط بالمركز. تحاول أن تتحرك ولا تستطيع من قوة التدافع خلفها. تبكي وتصرخ حين تبصر المسدسات في أيادي الناس حولها لا تكف عن إطلاق الرصاص على أي شيء. رصاصات طائشة مقصودة أو غير مقصودة، لا تدري. لكنها تخترق اللحم الحي فتحيله ميتا. نزل من على السيارة وهرع نحو السور. يكاد يكون الوصول مستحيلا. لكن ألم يتحقق أحد المستحيلات توا؟ حشر نفسه وسط الحشد. دفع من أمامه بعنف وترك نفسه للموجة العارمة من خلفه لتدفعه. طريق وعر نحو باب مغلق. لكنه كافح بضراوة للوصول. شعر بشيء صلب ملتصقا بجانبه، مد يده بصعوبه وأمسكه فإذا به مسدس مصوب بغير قصد نحو كليته. لم يهتم لنية حامله، لكم الرجل في وجهه مرة بعد أخرى وهو ممسك بالمسدس مصوبا إياه في اتجاه آخر. أفلته الرجل. فتوقف عن لكمه وتركه ليفقد وعيه تحت الأقدام. أكمل طريقه متشبثا بسلاح لم يختر الحصول عليه، حتى وصل، يكاد يغشى عليه من الاختناق برائحة الدخان والعرق. جسمه معصورا بين آخرين معصورين بالمثل. لماذا؟ لم يعلم، ولم يعد يهتم. يده نصف مرفوعة تحاول الإمساك بالقائمة الحديدية التي تمسك بها نورسين. صارا ملتصقين، يفصل بينهما السور. لو أنهما من عجين، لامتزجا معا وصارا قطعة واحدة، لكن صلابة جسميهما تقاوم هذا الامتزاج وتفجر فيهما سيلا من الألم الشامل. على بطنها شعرت بشيء حديدي، وعلى بطنه شعر بالمثل. أصابه الذعر، هل يمكن أن تنطلق رصاصة طائشة من مسدسه وتصيبها بأذى؟ وهي أصابها هلع من نوع آخر. وانفجر في مخيلتها السؤال

ذاته. هل يمكن أن تنطلق رصاصة طائشة من مسدسه وتصيبني بأذى؟! هل يمكن أن أتحمل مخاطرة وجود هذا السلاح مصوبا نحوي، وسط هذا التدافع المجنون الذي يسلب من فيه القدرة على التحكم في أبسط وأخطر عضو من أعضاء جسده، سبابته. لا، تلك مجازفة غير محسوبة. لقد صارت روحها وروحه فوق كفتي ميزان، وعلى أحدهما أن ترجح، فلا مجال للمصادفة في هذه اللحظة الثقيلة الحاسمة. كان عقلها كأنه يعمل بمعزل عنها. غريزتها الأولية للبقاء طفت على سطح وعيها حاجبة تحتها كل ما سواها. «ما الذي أتى بك إلى هنا يا أبي؟ لماذا جئت، لماذا؟»

وانطلقت رصاصة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت أمام المنزل. عيناها معلقتان على الجسد المهشم المتدلي من نافذة غرفتها، كان الحشد قد أنهى مهمته، وانفض الجمع ولم يبق منه سوى بضعة أشخاص وأطفالهم، يراقبون وكفوفهم تغطي أفواههم بذعر، لقد راقبوا الجريمة من بدايتها حتى نهايتها. لم تبرح أيديهم مكانها من على أفواههم، ولم تبرح أقدامهم مكانها من موقع الفرجة. فيلم كئيب أجبروا على مشاهدته. بدأ وانتهى وآنت لحظة نسيانه والتعافي منه. تجمدت في مكانها، تخشبت كساق شجرة عجوز. كفاها مثلجتان ووجهها يكاد يغلي من فورة الدماء فيه. القشعريرة في عنقها تزحف لأسفل كجموع نمل، تحتشد وتكتب على ظهرها رثاء ما. تلدغ روحها وتدميها، ثم تواصل زحفها نحو قدميها. تمتص منهما القوة فترتخيان وتتهدلان نحو الأرض. تسقط، تتحسس التراب تحت كفيها وتحاول عبثا أن تدفعه لتقوم. فيسقط رأسها رغما عنها ويتخضب بشيء ما. دموع بكر انهمرت من عينيها حتى بللت التراب، لتعود وتلطخ وجنتها طينة معجونة بالوجع والفجيعة، تسم وجهها بختم الحزن الأبدي. الظلام يعود من جديد ويزحف على مقلتيها، يغلقهما عنوة، ويذيب فيهما ما تبقى من وعي. لتذوب، تضيع، تنمحي في عدم رحيم، بعيد أبعد ما يكون عن واقع فظ وقبيح وأفظع من أن يمكن احتماله. ترتاح في اللاشيء المعتم، حيث لا زحام، ولا دخان، حيث لا قتلى، ولا أناس يتحلقون حولهم، ويبصرون مصرعهم وهم صامتون. حيث بيت بلا أم متدلية من السقف، ولا حبيب متدلٍّ من نافذة غرفتها، مقتول، مهشم، ينزف دماءه فوق شجرة قتيلة، ومطلية بلون قبيح. هناك في الظلام اللانهائي، حيث المبتدأ والمنتهى. حيث يسكن الوجع للحظات أو إلى الأبد. كانت تسبح، تطفو، تتلاشى برفق وتتوحد خلاياها مع خلايا العتمة. يصبحان شيئا واحدا، عجينا واحدا، طينة واحدة، كطينة الدموع والتراب. لكن الخلايا تتفكك، تتناثر، يتخللها الضوء فتتباعد كحبيبات الزئبق، تتجمع من جديد تحت وطأة النور. النور المتوحش، الطفيلي، المؤلم. نقطة مضيئة تسقط في وسط السواد اللانهائي. تزداد اتساعا، تصير بقعة قبيحة وسط جمال العدم.

بقعة قبيحة تكبر وتمتلئ بألوان العالم، برائحة الدخان، بشكل الشارع، والسيارات، والبيت المقبرة، البيت الصليب، البيت المذبح، البيت الذي ينضح منه الموت ويفيض على ما حوله. ها هو يتبدى أمامها واضحا بغير التباس. هو نفس العالم الكريه مرة أخرى. وها هي من جديد ملقاة على الطريق، لم يلمسها أحد! والأمهق كذلك. الأبواب مغلقة والطرقات فارغة إلا ممن خلفتهم المعركة بلا روح!

اتكأت على التراب بأقصى ما تستطيع من قوة. دفعت جسدها النصف مخدر لأعلى فقامت وانتصبت واقفة، توشك أن تتهاوى. جرجرت قدميها نحو المنزل، الباب مفتوح تحركه نسمات هواء ملوث بالموت. دلفت، وقفت أمام الدرج تحدق فيه بيأس، جسدها يعصى إرادتها ويستعصي على الحركة. قدماها ثقيلتان كأجساد الموتى. تمسك فخذها وترفعه، تضع قدمها بيديها على الدرجة الأولى، وتكرر الأمر في قدمها الأخرى، تفيض من عينيها الدموع، دموع سبع عشرة سنة. كاملة لا نقص فيها. تسقط على الدرج، وتنشج، تتقافز كلمات الرسائل حولها، تنغز جلدها، تطعنها وتدميها. ها هي أبيات صلاح عبد الصبور التي كتبها لها تطفو أمام ناظريها

«صافية أراك حبيبتي كأنما كبرت خارج الزمن

وحينما التقينا يا حبيبتي أيقنت أننا

مفترقان

وأنني سوف أظل واقفا بلا مكان

لو لم يعدني حبك الرقيق للطهارة

فنعرف الحب كغصني شجرة

كنجمتين جارتين

كموجتين توأمين

مثل جناحي نورس رقيق

عندئذ لا نفترق

يضمنا معا طريق

يضمنا معا طريق.»

تتحول الأبيات نارا تحرق صدرها، صخر مسنن ينحشر في حلقها فيزيد على البكاء أنينا وصراخا مكتوما موجعا. تحاول من جديد، مرة بعد مرة، حتى

تتمكن من الوصول زحفا. تواصل الزحف نحو غرفتها. تمر على غرفة أمها المفتوحة. تنظر للظلام بالداخل فتفزع وتمسك برأسها وتصيح. تفر من أمام الباب كمن يفر من الجحيم. تدلف إلى غرفتها. تجر جسدها حتى تصل للنافذة. تمسك بالحبل وتشده فتقوم واقفة تترنح. تحاول جذبه فيستعصي على جسمها شبه المخدر. تحاول وتحاول، دقائق، أم ساعات، لا تعلم. تنحدر الشمس من صفحة السماء، ويبدأ الظلام في الانهمار على عالمها الذي انحسر عن كل الأشياء وصار هي وهو والآن وفقط. أخيرا بدا الرأس من حافة النافذة. كادت تفلت الحبل من يدها جراء القشعريرة التي تفجرت من جديد في أطرافها. تحاملت على نفسها وجذبت من جديد، استماتت في المهمة الثقيلة، حتى نجحت. وصار الجسد بأكمله في الغرفة، بكامل عظامة المهشمة، ودمائه المهدورة، ولحمه الممزق وملامحة المكدومة. صار بكليته في الغرفة، بفيض كلماته وحروفه المتناثرة حوله تناثر دمائه. هو، بكامل ذكرياته التي صبها صبا في عقلها فصارت ذكرياتها هي. بكامل نبله وخوفه، بكامل رفضه وثورته الصامته. بكامل حنانه وعطفه البديع على الفتاة الصغيرة التي راحت لتبكي وحدها على فرع شجرة، تحفر على لحائها صورة لقرد ميت وسط ضباع مفترسة، صورة لصديق حميم مقتول وممزق وسط وحوش مفزعة وقبيحة. وضعت رأسه على فخذها وراحت تمرر أناملها على قسمات وجهه الضائعة وسط الدماء. تحاول عبثا أن تنقب عن قسماته من عمق ذاكرتها. تستحضر اللحظة التي كان فيها لها أقرب ما يكون. على حافة الجسر عندما همت بإنهاء حياتها، فأبى هو إلا أن تطول، وتشهد مقتله، وتبكيه وتفجع به. ضمته إلى صدرها بقوة وانخرطت في نوبة بكاء عنيفة، قبلت جروحه وراحت تشمها علها تعثر فيها على بقايا من رائحة العود الحبيبة. قبلت رأسه المكسور في أكثر من موضع. أرخت جسدها، وتمددت على أرض الغرفة. وضعت رأسه على صدرها وراحت تمسده. هذا الذي رحل بعد أن أخبرها بكل ما يعرف، ولم يخبرها باسمه. هذا المجهول الجميل. البعيد متناهي القرب، ذو الوجه القمري النقي من كل فضلات العالم. يستحق قبل أن يضيع في برودة الموت أن يبقى لليلة أخرى في دفء حضنها. يستحق أن تحكي له حكاية أخيرة. وأن تتلو عليه رثاءه. وتذرف دموعها على وجنتيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«قد آن يا كيخوت للقلب الجريح

أن يستريح،

فاحفر هنا قبرا ونم

وانقش على الصخر الأصم:

يا نابشا قبري حنانك. ها هنا قلبٌ ينام،
لا فرق من عام ينام وألف عام،
هذي العظام حصاد أيامي فرفقا بالعظام.
أنا لست أُحسَب بين فرسان الزمان،
إن عُدَّ فرسان الزمان
لكن قلبي كان دوما قلب فارس،
كره المنافق والجبان،
مقدار ما عشق الحقيقة.
قولوا لدولسين الجميلة..
أَخْطَابَ قريتيَ الحبيبة..
هو لم يمت بطلا ولكن مات كالفرسان بحثا عن بطولة..
لم يلق في طول الطريق سوى اللصوص،
حتى الذين ينددون كما الضمائر باللصوص..
فرسان هذا العصر هم بعض اللصوص!».

نجيب سرور

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلت الطرقات من الأحياء، بعد يوم طويل بدا كأنه بلا نهاية. تغلغل المساء في مسام المدينة المدماة، ستر جراحها بظلامه، وحجب عن الأعين مخلفات الموت المتناثرة في شوارع القاهرة. كثير من القتلى في كل ركن من الطرق والميادين. وكثير من الثكالى خلف أبواب البيوت المغلقة، يبكون الراحلين ولا يوارونهم التراب، خوفا من إهدار حيوات جديدة! تلك الحيوات القابعة في جحورها، محاطة بأكوام من المؤن والبطاقات. حيوات مسلحة بغريزة أولية شرسة، البقاء. ذاك الباعث المتناهي في القدم. المحفور عميقا في أبعد مواضع من النفوس، وأكثرها حصانة. هذا الذي يعبث في كل القيم وينحيها جانبا وقت الحاجة ليصير حاكما طاغية في مدنهم الداخلية، لا يستأنف حكمه ولا ترد كلمته.

في هذا المساء الأسود، بدأ رجال الإطفاء في الظهور، تمكنوا بعد ساعات من العمل من السيطرة على حرائق مراكز البطاقات. عادت الشرطة لمراكزها،

لملمت الفوضى وحصرت الخسائر وبدأت في إعادة النظام المهتوك. عادت الأجهزة اللوحية للعمل كسابق عهدها. وبدأت بتحميل عشرات من البطاقات الإخبارية، وبطاقات الرأي التي سيتداولها الناس في الأيام المقبلة تعبيرا عن آرائهم فيما حدث.

«العلاج الفاسد تسبب في الكثير من الفوضى والتمرد والجرائم، أنا أكره العلاج»

«أخيرا سيطرت الشرطة على الأمور من جديد، وتم القبض على المتمردين الذين فقدوا عقولهم نتيجة العلاج»

«الشرطة والشعب في خدمة الوطن، على المواطنين مساعدة الشرطة بتسليمها ما معهم من سلاح»

«أنا أكره العلاج وأتمنى عودة النظام مرة أخرى»

«لقد تسببت الفوضى في الكثير من الخسائر المادية وعلينا تحمل عواقبها في الفترة المقبلة»

«تمكنت السلطات من السيطرة على الحرائق والفوضى وتتمنى لجميع المواطنين الأمن والسلامة»

«تتعهد السلطات بعدم تكرر الأحداث المأساوية التي مرت بها البلاد، وتطمئن المواطنين بأنها سوف تتخلص من كل العلاج الفاسد لضمان سلامتهم وأمنهم»

«تناشد الشرطة المواطنين تسليم كل ما معهم من سلاح وتشكرهم على تعاونهم ومساعداتهم في السيطرة على الفوضى والمساعدة في مجابهة المتمردين وأعداء الوطن»

«تتعهد الدولة بالتخلص من العلاج الفاسد ومواصلة البحث عن بديل علاجي مناسب، ولذلك سوف يتم إعادة ضبط العداد الرئيسي للعد تنازليا من مئة عام جديدة»

«سوف يعود العداد ليحسب لنا مئة عام جديدة من الرفاهية والسعادة والرخاء، أنا سعيد بعودة العداد»

«أشعر بشعور رائع بعودة العداد لحساب أعوام جديدة من الرفاهية والأمن»

«سوف نتحمل ضعف الموارد المادية في الفترة المقبلة لتعويض الخسائر الفادحة التي تسبب فيها المتمردين»

«سنتحمل ضعف الموارد المادية في الفترة المقبلة لضمان مستقبل مزهر لنا ولأولادنا»

«سوف نضمن مستقبلا آمنا ومزهرا لنا ولأبنائنا بعودة العداد وحساب مئة عام جديدة من السعادة والرخاء»

«نحن سعداء بعودة العداد، ونتمنى أن تدوم السنوات المئة الجديدة إلى الأبد!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت نورسين تحدق بوجهها في المرآة، لساعة أو ساعتين أو ربما أكثر. وجهها ملطخ ببقايا الكارثة. في رأسها تتردد عبارة واحدة بلا انقطاع، لقد قتلت أبي، غير متبوعة بمبررات، غير مسبوقة بأسباب. عبارة صغيرة عارية تماما، مفضوحة وخادشة للروح. تحاول إقصاء المشهد من ذاكرتها فلا تستطيع. عيناه المتشبثتان بعينيها، مدهوشتان مفزوعتان، وجهه وهو ينقبض من الألم. من رصاصة انغرست في أحشائه ومن نصال انغرست في صميم قلبه حيث روحه وأبوته مجتمعتان. الدم الدافئ وهو يسيل على كفيها، محاولتها للابتعاد عنه وعجزها عن ذلك. كأنها حمض تدفق على يديها كاملا بغير نقص. أكسير الجريمة يلتصق بجلدها ويصمه للأبد برائحة الذنب التي لا تزول. تنظر ليديها، ما زالتا تحملان بعضا من الدم المتخثر. تخمشه بأظفارها حتى يتقطع جلدها وتختلط دماؤها الدافئة بتكتلات الدم البارد المتجلط.. ألم تكن دماء واحدة منذ البدء؟! ها هي تعود وتتوحد من جديد، فوق يد آثمة. دلفت للمرحاض، خلعت ملابسها ووضعت جسدها تحت المياة الساخنة المتدفقة. أسخن درجة في الصنبور. انهالت عليها المياة حارقة، تحرق رأسها وكتفيها وما تطاله من جسمها، صرخت وبكت، فركت يديها وجلدها باللوفة وبالصابون، حتى تحول لونه أرجوانيا من فرط السخونة وشدة الفرك. «لقد قتلت أبي» ما زالت العبارة موجودة، لم يذِبها الماء ولم تمحُها سخونته. لم يحجب ألم جسدها آلام روحها كما ظنت. بل تواطأ الاثنان على جلدها والتمادي في تعذيبها. خرجت من المرحاض، ارتمت عارية على الفراش، تسولت غفوة تهرب بها من تلك اللحظة المتوحشة. لكن عينيها ظلتا يقظتين، وجسدها ينتفض من الألم. لم تنم في تلك الليلة، حل الصباح وهي بكامل يقظتها. وميض النور على الباب نبهها لمجيء أحدهم. فتحت الباب، فإذا بها ناتالي، ارتمت تحت قدميها باكية فربتت الثانية على رأسها أن اطمئني، سيكون كل شيء على ما يرام!

جلستا متجاورتين على المقعد الخلفي من سيارة ناتالي. أسندت نورسين رأسها على زجاج النافذة وتأملت شوارع القاهرة. رأت أناس يعملون بدأب على إزالة آثار اليوم الفائت. عمال نظافة وعمال صيانة. مسعفون وأطباء

ورجال شرطة ورجال إطفاء. في حين كان الآخرون قابعين في منازلهم ينتظرون عودة الوطن، ليطرق أبواب منازلهم مبتسما ويدعوهم للخروج والبدء من جديد. كانت منهكة. لا تقوى حتى على البكاء. جسدها يتوق للنوم وعقلها يتوق للانطفاء. لكن عينيها المفتوحتين رغما عنها تأبيان أن تسمحا لها بالراحة.

توقفت السيارة أمام مركز بطاقات صغير مهمل في أطراف القاهرة، نزلت ناتالي، وفتح السائق بابها لتنزل هي الأخرى. أخرجت قدميها الثقيلتين وقامت بصعوبة. لفتها ناتالي بذراعها وقادتها للداخل. دلفتا للمبنى، واستقلتا المصعد الكهربائي. لم يصعد لأي طابق علوي بل نزل لأسفل. طابق، اثنين، ثلاثة. توقف عند الطابق الثالث تحت سطح الأرض.

تبعت نورسين ناتالي في الرواق الطويل خافت الإضاءة، حيث لا يوجد سوى موظف واحد يبدو عليه القلق والانزعاج. لا أفراد أمن، ولا حاشية تتبع ناتالي كما هي الحال في معظم الأحوال. توقفتا، فتقدم الموظف وفتح باب أحد المكاتب. دلفت فدخلت في إثرها نورسين، بعد أن حدجها الرجل بنظرة طويلة غير مفهومة. نظرت حولها فلم تفهم، وبعد لحظات، فهمت ولم تصدق. هل هذه الأجهزة الغريبة هي أجهزة الإدخال؟ هل يمكن أن يكون هذا المكان المهمل على أطراف القاهرة يحمل في جنباته هذا الكنز. حواسيب كثيرة موصولة بلوحات مفاتيح. هكذا تصنع البطاقات إذن. جلست على أقرب مقعد، علقت نظرها بعيني ناتالي. «ستكون الأمور على ما يرام» رفعتها أمامها ثم أتبعتها بعدد من البطاقات الأخرى.

«لقد كنا نتابعك عن كثب في الفترة الأخيرة وثبت لنا جدارتك بهذا المنصب»

«في هذه الظروف الرهيبة التي يمر بها الوطن، نحن بأمس الحاجة لموظفين أكفاء مثلك في هذه المناصب الحساسة»

«أنت فتاة قوية وذكية وتستحقين منصبا كهذا»

«في هذه المرحلة الحاسمة التي تمر بها البلاد، سنحتاج لدم جديد خلف أجهزة الإدخال لصنع البطاقات»

«نحن على يقين بأنك جديرة بصنع البطاقات»

«سيكون هذا هو يومك الأول خلف جهاز الإدخال»

«ستتحقق أحلامك وستتمكنين من التعبير عن نفسك من خلال صياغة البطاقات بما يتناسب مع السياق المجتمعي والأمني للبلاد»

أمسكت بكفها وأنهضتها، قادتها نحو أحد الأجهزة وأجلستها على المقعد المقابل له. كان الأمر كالحلم. حلم لم تجرؤ يوما على التفكير فيه، كانت التساؤلات حول صناعة البطاقات لا تبرح عقلها. إلا أنها لم تطمع أبدا في أن تتمكن بالفعل من صياغة البطاقات. حدقت في لوحة المفاتيح، تحسستها واحدا تلو الآخر ثم حدقت في الشاشة البيضاء أمامها. هي ليست مجرد شاشة، بل هي فرصة، هي وعاء فارغ يمكنها أن تصب فيه نفسها. طينة جاهزة لأن تنفخ فيها من روحها، فتحيا في عقول الآخرين وقلوبهم. اقتربت ناتالي، ودقت على المفاتيح، كتبت بخط كبير «يمكنك أن تكتبي الآن ما تشائين» أطرقت نورسين، انهمرت من عينيها دموع غير مرحب بها في موقف كهذا. فكرت، وأطالت التفكير. ماذا يمكن أن تكتب؟ دلفت لعقلها وجالت في أركانه، فلم تجد على جدرانه سوى بطاقات مكرورة قرأتها في أوقات سابقة. هرعت وركضت، فتشت وأثارت به الفوضى. فلم تجد سوى المزيد والمزيد من البطاقات. أليست هي الفتاة الذكية التي تتباهى بتميزها أمام الجميع؟ هذه هي الفرصة التي يمكنها أن توثق بها هذا التميز على سطح بطاقة. لكنها لا تجد كلمات. لا شيء على الإطلاق. ارتمت على المكتب أمامها وأجهشت بالبكاء، فربتت ناتالي على كتفها ومسدت شعرها. انحنت على لوحة المفاتيح مرة أخرى، وكتبت «اكتبي ما يجول في خاطرك»

مسحت دموعها المنهمرة بطرف كمها. حدقت في لوحة المفاتيح، واستغرقت لحظات في استيعاب أماكن الحروف. تقلص وجهها بالبكاء من جديد وهي تكتب ببطء «ل ق د ق ت ل ت أ ب ي» ثم ما لبثت أن انفجرت في البكاء من جديد. راحت ناتالي تمسح على شعرها وهي تتأمل بسكون الشاشة البيضاء الملطخة بالحروف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في قصرها المعزول بعناية عن كل شيء خارجه. وقفت قبالة المرآة، تتفرس كل من صورتيها بالأخرى، وعلى الطاولة المجاورة مسجل موسيقى صغير وورقة تحمل على سطورها تقريرا ما. تقريرا أو رثاء أو دليل إدانة، أو ربما كل ذلك في آن واحد. المسجل يصدح بنغمات سوناتا ضوء القمر لبيتهوفن، كأنه تواطأ مع الرسالة ومع هذا العالم الكئيب لتبدو كآبته أشد وضوحا وأعمق أثرا، فقد كانت تلك هي موسيقاه المفضلة.

لساعات طويلة مضت، لم يكف المذياع اللعين عن إذاعة الأخبار ساعة بساعة

«أرواح بائسة نالوا ما يستحقون

لأن حياتهم لم تكن مخزية

ولم تكن مرضية

فنبذتهم السماء

ورفضهم الجحيم»

ترددت في عقلها أبيات دانتي وهي تتابع أخبار المجزرة المراقبة بعناية، أعين كثيرة ترصد، وعقول تحلل، وأفواه تثرثر في محطات بث من مواقع شديدة السرية، تحكي عن كل صغيرة وكبيرة تحدث. وآذان تسمع الحكايات في قصور نائية بعيدة عن كتل النار وآلة القتل المجنونة الدائرة في شوارع القاهرة. حكايات مكرورة عن جرائم تقع في الطرقات، وفي مراكز الشرطة وأمام مراكز البطاقات. تحققت كل التوقعات وصدقت كل النبوءات التي تنبأ بها هؤلاء الصفوة عن هشاشة مبادئ المواطنين، وسهولة الحيد بها عن طرق الصواب. هم لا يستحقون أكثر مما هم عليه. ولهذا على الوضع أن يبقى على ما هو عليه. ينبغي للوصاية التي فرضت على عقولهم وأفواههم لمئة عام ألا تنتهي. ينبغي أن تظل تلك الكثرة البكماء تحت وصاية قلة راشدة ورشيدة، تضمن الاستقرار للبلاد، حتى وإن كان طريق الوصول لذلك محفوفا بالقليل من الفوضى والخطر. يوم واحد في الجحيم، يضمن سلامة واستقرار مئة عام جديدة. تظل فيها الكلمات والأفكار حكرا على صناع البطاقات، تلجم فيها عقول الرعاع، وتوظف بدقة في خدمة الوطن وسلامة مواطنيه.

لم تكترث لكل تلك الأنباء والتحليلات، لا جديد. هي تعرف كل ما يقال وكانت تعلمه حتى قبل أن يحدث. شيء وحيد تخطته توقعاتها. لم يخطر لها على بال ولم يطرأ حتى على أكثر كوابيسها بشاعة تلك الكلمات في التقرير على الطاولة. جاء كل حرف فيه رصاصة تخترق روحها وتشعل النار في حشاها. الكلمات اللعينة تخبرها بأن ابنها الوحيد، القطعة الوحيدة من جسدها وروحها التي فرت من تحت إمرتها وغادرت حدودها فتركتها خلفها منقوصة الروح، معطوبة الجسد. فلذة كبدها الذي لم يقنع بأمومتها ونبذها، ولم يقنع بهدية الحياة التي أهديت له وألقى بها تحت الأقدام ورحل. صغيرها الذي قرر ألا ينتمي لمجتمع الصفوة الراشدين. لم يقنع بكونه يسمع ويتكلم ويرى وغيره من الناس لا يفعلون. فنبذ أهله وحزبه وأمه وصاحب الكلاب وهرب معهم من القصر الكبير، ليجوب الشوارع مع الهوام والحيوانات الضالة. تشرد في شوارع القاهرة، وعاش في أوكار عتيقة لا تليق بنسبه وببنوته لسيدة المدينة. لطالما أخبرها أنه لا يطيق الاستئثار بنعمة منّ اللـه بها على جميع خلقه، وأن من تسميهم هي بالرعاع هم أناس لا يختلفون عنه في شيء، وأنه لا يحق لها ومن معها أن يخدعوهم ويسيطروا على عقولهم بتلك الطريقة. أخبرها أن ما يخططون لفعله بعد مرور المئة عام هو مجزرة، وأنه لا يستطيع أن يشترك فيها حتى لو كانت مشاركته مجرد قبول وموافقة صامتة. أخبرها بأن ما حدث

قبل مئة عام من افتعال الوباء ونشره ثم فرض نظام البطاقات بحجة السيطرة على فوضى الثورات والانقلابات هي جريمة عالمية، تواطأت فيها الحكومات على شعوبها، وأن مجرد القبول بها والتعايش معها هو مشاركة في الجريمة وهو ما لا يقدر على قبوله. هجرها وخلفها وراءه وحيدة، هي التي تخلت عن أبوه في سبيل الحفاظ عليه وحفظ سره وكنزه الثمين، لسانه. فأب من الرعاع الصم والبكم لا يصلح لتربية ابن من الصفوة. كان عليها أن تتخلص منه إن هي قررت الحفاظ على الولد. وها هو يكبر ولا يقدر لها تلك الهبة التي وهبته إياها. والآن تخبرها الورقة اللعينة، أنه مات مقتولا، مرجوما، من نفس الناس الذين هجرها لأجلهم.

تقلص انعكاس وجهها أمام ناظريها في المرآة. انحدرت من عينها دمعة وحيدة، سقطت على كفها ثم على إسفنجة مسحوق التجميل التي تحملها بها. مسحت بها عينيها، لكن ملامحها انكمشت مرة أخرى وذرفت دموع حارة جديدة. فراحت تمسحهما بصرامة، حتى تشربت الإسفنجة كل الدموع، وعادت لتحدق لنفسها في المرآة وتتذكر أنها فتاة قوية وسوف تتخطى كل هذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كأن على رؤوسهم الطير. تجمعوا في النوادي الاجتماعية كما فعلوا طوال حيواتهم. جلسوا على ذات الموائد، تحيطهم الأضواء الباهرة والألعاب الملونة والزحام والصخب الصامت. تمر أصابعهم بتكاسل على الأجهزة اللوحية، فتتالى البطاقات أمام أعين تنضح بالهم. الأطفال لا يركضون، يحدقون في أكشاك الألعاب ويتحسسون الجنيهات في جيوبهم، ثم يغادرونها نحو اللاشيء. ووسط الأجساد المتباطئة، ركض كلب هاسكي، قفز على أحد الموائد فانسكب كوب العصير على آدم. عصير فراولة أحمر، حدق بكفيه الملطختين بالحمرة طويلا، اضطرب قلبه وراحت عيناه تطرفان بعصبية وهو يرقب السائل الأحمر يسيل ببطء من بين أصابعه. ناوله أحد الجالسين منديلا، فراح يفرك به يديه بقوة كأنه يتخلص من حامض يتآكل جلده وينخر عظامه.

عاد الكلب يركض من جديد، يبحث عمن يلاعبه، مر بين الموائد، والمتحلقين حولها بوجوه واجمة وأعين شاردة. عيون تقرأ البطاقات وتضبط عليها أجهزتها اللوحية بلا رغبة حقيقية وبأدنى قدر ممكن من الطاقة.

«أنا في شدة السعادة أن الدولة تمكنت من السيطرة على الوضع وإعادة الأمن من جديد»

«أشعر بالتفاؤل، بالتأكيد ستكون المئة عام المقبلة أفضل وأكثر أمنا واستقرارا»

«لقد حدثت كل تلك الفوضى بسبب العلاج، أنا لا أرى له أي أهمية، نحن نقول كل ما نريد بالبطاقات»

«لقد صممت البطاقات لتمكننا من قول كل ما نريد قوله، نحن لسنا في حاجة للمزيد»

أصابع تحاول التعافي من الحزن المقيم في النفوس، وأعين مغرورقة بالدموع تقرأ. القلوب ما زالت ثكلى، والعقول مضطربة، لكن الأصابع كانت ولا تزال غير خاضعة لإمرة أيا منهما. كأنها جهاز مستقل، تمتد وصلاته العصبية من وإلى الأجهزة اللوحية، تلك التي تتدلى من رقاب الجميع، تطوقها وتحكم عليها قبضة غير مرئية. تخضعها وتروضها وتمتلكها بالصمت الجبري. ظلت الدموع تنحدر ببطء، وتنهمر بغزارة، فيما ظل تتالي البطاقات مستمرا، بحتمية وثبات.

«أشعر بسعادة غامرة لعودة البلاد لوضعها الرائع السابق»

«هل جربت الآيفون الجديد؟ إنه رائع، سوف أشتري واحدا في أقرب فرصة»

«لقد قررت الدولة أن يكون تاريخ اليوم عيدا وطنيا للأمن والأمان!»

«أشعر بالتفاؤل، بالتأكيد ستكون المئة عام المقبلة أفضل وأكثر أمنا واستقرارا!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما بعد الفصل الأخير

صباح شتوي لطيف، حجبت فيه بعض السحابات وحشية الشمس، وأبدت منها وجهها الرائق الحنون. ضوء أبيض دافئ تحيطه تشكيلات بديعة للسحاب. منه انحدرت أمطار خفيفة غسلت الشوارع والأشجار العتيقة في الحدائق القديمة، والشجيرات الشابة المشذبة في حدائق المنازل. وعلى الطريق المسقي بهبات السماء، ركض طفلان وطفلتان لم تتجاوز أعمارهم العشر سنوات. تسابقوا حتى وصلوا لأحد المنازل ذات الطابقين المبنية على الطراز الأوروبي. دلفوا مسرعين، تخطوا الأب المتجمد أمام التلفاز، والأم المنهمكة في المطبخ. وصعدوا للطابق العلوي. أسرعوا بالدخول لأحد الغرف وأغلقوا الباب. تقافزوا على أحد الأسرة ونزلوا منه وجلسوا في منطقة ما بين السريرين. رفع أحدهم ملاءة السرير، فظهر عدد من الصناديق الصغيرة، في أحدها أكثر من عشرين زجاجة من زجاجات طلاء الأظفار. وآخر به بعض الأوراق الفارغة والرسائل.

دس أحد الولدين يده في جيبه وأخرج ورقة مطوية. فتحها ووضعها في المنتصف حيث يراها أربعتهم، ثم شرع الجميع في قراءتها.

«اليوم سأحكي لكم قصة كتبها شهيد اسمه غسان، لابنة قلبه لميس في عيد ميلادها السابع. تحكي القصة عن أميرة صغيرة توفي والدها الملك وترك لها وصية ثقيلة، وهي أنه يجب عليها أن تدخل الشمس إلى القصر إذا أرادت أن تصير الملكة، وإلا ستظل طوال حياتها حبيسة داخل أسواره. مضت الفتاة تطارد الشمس في الطرقات وعلى قمم الجبال، فلم تستطع لها وصولا. فعادت لغرفتها وراحت تبكي فشلها وعدم قدرتها على تنفيذ وصية أبيها. حتى جاء شيخ مجهول يحمل قنديلا مضاء، وقال لها إنه يعرف ما ينبغي عليها فعله، أخبرها بأنها لن تستطيع أن تجد الشمس في غرفة مغلقة، ورحل. بحثت عنه الأميرة في كل مكان فلم تجده، فكلفت حرس القصر بالبحث في كل مكان عن أي شخص يحمل قنديل مضاء. ليتدفق بعدها الناس حول القصر حاملين قناديلهم، حتى تهدم من كثرتهم السور العالي الذي كان يحيط القصر ويعزله عما حوله. وعندما حدث ذلك، صارت جموع القناديل المضاءة متوهجة كالشمس، وامتد وهجها إلى داخل القصر فأضاءه. وظهر الشيخ مرة أخرى ليذكرها بما قاله سابقا، إنها لن تستطيع أن تجد الشمس في غرفة مغلقة. وهنا، فهمت ما كان أبوها الملك يرمي إليه، فهدمت الأسوار وشرعت ذراعي القصر أمام الناس والقناديل، والشمس. هذا كتاب خطه شهيد... وكتب الشهداء رسائل... تكتب بالدم وتُقرأ بالروح... لتعود بعد حين... وتكتب بدماء جديدة.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شكر..

أدين بخالص الشكر و المحبة لكل من:

- رفيقي وزوجي الحبيب محمد علي، الذي كان لي نعم السند، والذي لولاه ما كان هذا العمل ولا سواه ليكون، وما كانت حياتي بأكملها لتستقيم.

- أستاذتي الجميلة المبدعة شيرين هنائي التي علمتني الكثير، ومنحتني من الدعم والثقة والاهتمام أكثر مما أستحق.

- أخي وحبيبي ومعلمي وتوأم عقلي محمد عاطف، الذي كان يتلقف مسودات الرواية فور ولادتها في هذا العالم، فيربت عليها ويمنحها مباركته ومحبته، ويرعاها كما كان يرعى فكري ومخيلتي طوال حياته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

الإهداءُ..

ما قبل الفصل الأول

الفصل الأول: التحليق

الفصل الثاني: السقوط

الفصل الثالث: القتل

ما بعد الفصل الأخير

شكر..